T
20A

المشاكل السياسية الداخلية في سوريا

رسالة قدمها

نجم الدين الرفاعي

الى

كلية الاداب في

الجامعة الاميركية

في

بيروت

لنيل

شهادة استاذ في العلوم :

في العلوم السياسية

١٩٤٦

تصـــــــــدير

اول ما يفترضه قيام الدولة الديموقراطية المبنية على اساس قومي ، وجود شعب يتجانس افراده في المشاعر والاهداف . فاذا انعدم هذا الشرط الاساسي عند امة من الامم ، اصبح من الجهل ان توضع في مصاف الدول الديموقراطية وان ينعت مجتمعها بالمجتمع القومي الاصيل . ان وحدة اللغة والتاريخ حتى واصالة الدم لا تكفي لتكوين امة ودولة ما لم تتحقق عند افراد تلك الامة او الدولة وحدة الشعور والاتجاه .

من هنا تنشأ الصعوبة في الحكم على القطر السوري من حيث تكوينه السياسي . فالمشاكل الاجتماعية والسياسة العديدة التي ترسبت في مجتمعه خلال الاجيال خلقت فيه بلبلة روحية اعدمته تلك الوحدة الاساسية فاصبح لا يمثل الدولة الديموقراطية الطبيعية اصدق تمثيل . وبالرغم من التطور المحسوس الذي حدث في المدة الاخيرة وما رافقه من التحسن الملحوظ فان هذا القطر ما زال يشكو من تلك المشاكل التي ورثها عن الماضي والتي تعد عقبة كأداء في سبيل تكتله القومي ونضوجه السياسي .

ولقد عمدت في هذه الرسالة الى درس اهم هذه المشاكل مبينا اصول كل منها ثم اهميتها وما يترتب عليها من نتائج في حياة البلاد السياسية وكنت اشير في نهاية كل فصل الى الحلول الناجعة التي ارتئيتها لمعالجة تلك الادواء . ولان كان في بحثي شيء من الاقتضاب وعدم التفصيل فذلك يعود في الدرجة الاولى الى قلة المصادر ونذورها خاصة فيما يتعلق بالوقت الحاضر . وعلى كل حال فان البحث في هذه المشاكل بشكل واسع دقيق يحتاج الى دراسة عميقة شاملة ، وهذا شيء لا يتيسر للمرء في وقت قصير محدود . وحسبي ان اكون قد اثرت هذه المشاكل وبينت مواطن الخطر منها بصورة علمية تسترعي الانتباه لاشعر براحة الضمير وصفاء الوجدان .

وقبل ان اختتم هذه الكلمة اود ان اشير بصورة خاصة الى ما لقيته من التشجيع والمعونة الكبرى من استاذى الكريم الدكتور نبيه فارس الذى خصني بالكثير من ارائه وملاحظاته الدقيقة ، والذى لولاه لما تمكنت من انجاز هذا العمل الشاق ، كما اننى لا انسى ما بذله استاذى شارل عيساوى من جهد وما تحمله من عناء فى سبيلي .

واخيرا لا بد لي من التنويه بما قدمه لي كل من الدكتور عبد الرحمن الكيالي والدكتور ادمون رباط والاستاذ جلال السيد ، وكذلك بعض الاصدقاء من المساعدة القيمة التي كانت خير عون لي فى اتمام هذه الرسالة .

فاليهم جميعا اتقدم بخالص شكرى وامتناني .

صفحة

تصدير ١

الفهرست

المقدمة لوحة تاريخية ٣

الفصل الاول : مشكلة الطوائف ٢٣

الفصل الثاني : مشكلة الاقليات العنصرية ٤٧

الفصل الثالث : مشكلة الطبقات ٦٤

الفصل الرابع : مشكلة اليهود البدو ٨٣

الفصل الخامس : المشكلة التربوية ٨٩

الفصل السادس : مشكلة الادارة ٩٧

خاتمة : ١١٨

مصادر البحث ١٢١

لمحة تاريخية

"ما استعصت الحرية على من وطد العزم على ان ينالها "

غاريبالدي

اذا وقفت امام الخارطة ترى في غربي آسيا على شماطئ البحر الابيض المتوسط مستطيلا من الارض تحده الصحراء من الشرق وجبال طوروس من الشمال ، ويحده البحر الاحمر من الجنوب . هذه الارض هي سوريا ، وقد عرفت بهذه الحدود منذ اقدم العصور (١) . على ان هذه الحدود الجغرافية لم تشكل في يوم ما دولة ذات كيان سياسي موحد . بل كانت منذ فجر تاريخها خاضعة لتطورات واحداث جسام جعلتها عرضة للتغيير والتبدل في الاوضاع والحدود . ولن نتبين صحة هذا القول الا اذا استعرضنا تاريخ هذه البلاد منذ ان كانت موئلا لتلك القبائل السامية التي نزحت من قلب الجزيرة العربية على شكل موجات تتابع انطلاقها على مدى التاريخ . حتى ان بعض المؤرخين يرون في الحركة الوهابية الاخيرة احدى تلك المهاجرات التي كانت تتسع وتضيق حسب الدوافع والظروف . والذي نعلمه الان هو ان بعض تلك القبائل السامية كان اول من اسس الممالك وشاد العمران في هذه الربوع . فكان الاموريون يسكنون مرتفعات سوريا الداخلية والكنعانيون يقطنون سهول فلسطين ، اما الفينيقيون فقد استوطنوا الساحل وامتازوا بالتجارة لان مركزهم على شاطئ البحر الابيض المتوسط مكنهم من المضي في ذلك السبيل .

في تلك الادوار القديمة كانت سوريا مجزأة الى ممالك عديدة طالما تنازع ارسابها على العزة والسلطان ، فكانت هذه البقعة من الارض مسرحا للقتال وعرضة لغزو جيرانها من المصريين الى الكلدانيين يحكمها كل منهم فترة من الزمن لا يلبث ان يطرد بعدها ويحل مكانه فاز جديد .

هكذا كانت حالة هذه البلاد حينما داهمها دارا الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد واخضعها لامبراطوريته الواسعة الارجاء . ومنذ ذلك التاريخ حتى الفتح الاسلامي تناضل في سبيل استقلالها ضد العناصر الاربة التي كان اولها الفرس واخرها البيزنطيين ، وكانت طوال تلك العهود تشكل قسما من امبراطورياتهم وتخضع لنفوذهم

---

(١) Ency. Britannica , Syria, IIth Ed. p. 305

الذى اورثها كثيرا من المصاعب والمتاعب رغم ما افادته من وجودهم من ناحية الرقي والعمران . فان اولئك الفاتحين جعلوا بفتوحاتهم هذه الديار ملتقى للاديان ومحطا لرحال الشعوب حتى اصبح سكانها فيما بعد يشبهون بالفسيفساء لكونهم كما يزعم البعض يمثلون مزيجا غريبا من المذاهب والاقوام . ولا شك ان الامر كان كما يزعمون يوم فتحها العرب المسلمون ، اذ وجدوا فيها اناسا تختلف اجناسهم وتتغاير عقائدهم . فمنهم من يمت بصلته الى العنصر الارى كالروم واليونان ومنهم من يرجع بنسبه الى الساميين كالعرب والاراميين والعبرانيين ، هذا فضلاً عن ان بعضهم كان ينتمي الى الفرق النصرانية الشائعة والبعض الاخر كان لا يزال وثنيا يتبع دين ابائه واجداده . ولئن كان مستقبل العروبة لامعا فى بلاد الشام اذ تمكن العرب الفاتحون من صهر جميع الاقوام فى بوتقتهم حتى اصبح اهلها عربا خلصا فى الثقافة واللسان ، فلقد ظل الفارق الديني يتعاظم طوال التاريخ الاسلامي ، والاديان والمذاهب تزداد تعددا وتباينا حتى اصبح سكانها اليوم لا يجتمعون الا فى صعيد القومية العربية المبنية على وحدة اللغة والثقافة والتاريخ . وسيظهر لنا صدق هذا القول ونحن نتتبع تاريخ سوريا بعد الفتح العربي الاسلامي الذى جاء محررا لابنائها الاصليين من يد الحكم البيزنطي الغريب . فالفتح الجديد اذن لم يكن بالنسبة لاغلبية الاهالي سوى تحرير من الاستعمار الاجنبي الذى اثقل كاهلهم بالضرائب وغيرها من الاشياء مما جعل ابناء سوريا يرحبون بذوى قرباهم ترحيبا يدل على نفاذ صبرهم من ظلم الروم (١) . وكانت نظرة الفاتحين الى هذه البلاد لا تختلف عن نظرة اهلها لهم ، فلقد ذكر المستشرف الهولندى " دى غويه " بانه لما عزم ابو بكر على فتح سوريا لم يكن يفكر بانه يفتح بلادا غريبة بل كان يقصد ان ينقذ شعبا عربيا ينوء باستعمار الاعاجم له (٢). وليس من شاننا ان نفصل فى هذا الباب عن قدم العرب فى سوريا ، لكننا نكتفى بان نشير الى انهم عرفوها قديما وكانت لهم فيها دول وامارات كدولة الانباط التي كان مقرها فى الجنوب الشرقي من فلسطين وامتدت حتى خليج العقبة ، وكدولة تدمر التي اكسبها مركزها الجغرافي بين العراق والشام اهمية تجارية وعسكرية كبرى (٣). وفى اوائل القرن السادس للميلاد

---

(١) P.Hitti, History of the Arabs, p. 143 .

(٢) Degoeje : Mémoire sur la Conquete de la Syrie, p. I

(٣) — جرجي زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ٣٨ — ٦٨ و ٨٣ — ٩٣ .

قامت امارة الغساسنة الشهيرة في حوران وما حولها من الاراضي وكان لها شان كبير في سياسة الدولة البيزنطية . وفي اواسط القرن المذكور رقى الامبراطور البيزنطي يوستنيان جبلة بن الايهم ، امير الغساسنة الى رتبة ملك (١) . والى جانب الغسانيين كانت قبائل عربية عديدة منتشرة في ارجاء البلاد السورية كالضجاعمة ولخم وجذام وعاملة . فلما جاء العرب فاتحين سوريا وجدوا فيها كثيرا من القبائل العربية التي انحاز امراؤها الى جانب البيزنطيين ضد العرب عملا بواجبات الولاء والحلف ، ثم ما لبثت هذه القبائل ان نصرت ابناء عمومتهم ضد الدولة البيزنطية (٢).

من كل ما سبق يتبين لنا ان العنصر العربي قد لعب دورا هاما في حياة سوريا قبل دخول العرب المسلمين ، وان العرب قد اقاموا لهم كما اسلفنا دولا وامارات كثيرة كانت تستقل حينا وتخضع للنفوذ الاجنبي احيانا اخرى . ويجب ان لا ننسى بان الحياة القبلية في الشام تعود باصلها الى تلك العهود السحيقة التي سبقت ظهور الاسلام . فمع ان بعض تلك القبائل العربية قد استهوتهم حياة التحضر والمدنية الا ان اغلبهم ظلوا يعيشون عيشة الترحل والتنقل التي تاصلت في فطرتهم منذ القدم واستمرت على مر الاجيال وتغير الاحوال . ولا ريب بان اولئك العرب الرحل كانوا عنصر شغب ومصدرا للفوضى خلال التاريخ العربي الاسلامي الذي كانت بدايته فاتحة عهد جديد لحياة هذه البلاد (٣).

في القرن السابع للميلاد كانت الجزيرة العربية تتمخض عن حادث عظيم نتج عنه تغيير حاسم لحياة بلاد الشام . فلقد قام محمد بن عبد الله في ذلك الحين يدعو الناس الى دين جديد هز ابناء العروبة وجمع شملهم فقاموا يبشرون برسالة روحية كان منها للعالم خير عميم . ودفعتهم تلك الهزة العميقة الى الفتح فقاموا يؤسسون امبراطوريتهم على انقاض المبراطورية الفارسية وقسم كبير من امبراطورية الروم . وما هي الا سنين قليلة حتى امتد سلطانهم من الصين شرقا حتى الاندلس غربا ، واصبحت دمشق عاصمة سوريا التي حررت من الاستعمار البيزنطي مركز الخلافة في تلك الخلافة الامبراطورية المترامية الاطراف . ثم ذلك في اواسط العصر الاموي الذي

---

(١) – زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٨٤ – ١٩٤

(٢) – H. Lammens, L'Ancienne Frontière entre la Syrie et le Hidjaz p. 91 - 92 .

(٣) – H. Lammens, La Syrie, T.I., p. 153 .

الذى افتتحه معاوية ابن ابى سفيان يوم اعلن نفسه خليفة ، وكان قبل ذلك واليا على سوريا يحكمها من قبل الخليفة الذى يقيم فى المدينة بالحجاز .

ذكرنا بان العرب فتحوا هذه البلاد وغايتهم نشر الدين الحنيف . على انهم لم يلجاوا الى وسائل القوة والقسر والقسر فى حمل الناس على اعتناق الاسلام ، بل عاملوا اهل الكتاب من يهود ونصارى معاملة حسنة وسموهم اهل الذمة اى اهل العهد والميثاق وحافظوا على ارواحهم واملاكهم وعلى حريتهم الدينية مقابل جزية زهيدة يتناولونها (١) . وظل الفاتحون ينهجون على الاغلب هذه الخطة ابان العصر الاموى الذى امتاز بطابعه العربي ، اذ حرص الخلفاء آنذاك على تنشيط اللغة العربية والظهور بشكل عربي اصيل كما انهم عملوا بجد ونشاط لكي يعربوا سكان البلاد (٢) . ومنذ ذلك التاريخ بدات عملية التعريب واخذ يتولد على مر الايام جيل عربي اسلامي له مدنيته وحضارته وسلطانه .

عرفت سوريا فى تلك الايام عزا لم تنله فيما بعد ، فلقد كانت مركز الادارة والسلطان ، فبهج نورها وكثرت خيراتها فلبست بذلك حلة قشيبة ما عهدتها فيما مضى من تاريخها . بيد ان ذلك الحظ لم يكن ليكتب له الدوام والاستمرار ، فتكاثرت الاسباب التى ادت الى ضعفها وانهيار قوتها ، وعادت فى العصر العباسي الذى تلى العصر الاموى تحكم من غير اهلها وتحتل مكانا ثانويا بالنسبة الى العراق الذى اصبحت عاصمته بغداد مركز الخلافة بعد ان كانت دمشق مركزها فى العصر الاموى .

ان زوال الدولة الاموية يعود لاسباب عديدة اهمها اربعة :

اولا = الانهيار الاخلاقي الذى عم المجتمع الاموى ثم انصراف بعض الخلفاء الى لهوهم وعبثهم عوضا عن الاهتمام بشؤون الدولة .

ثانيا = ظهور العصبية القبلية وقسمها لسكان الامبراطورية الى قسمين ، فكان اليمنيون والقيسيون يقتتلون اينما وجدوا وينشرون الفوضى فى ارجاء البلاد .

ثالثا = عدم قيام ولاية العهد على اسس صحيحة ومتينة .

رابعا = الدعوة العباسية . فان العداوة بين بني امية وبني هاشم وانضمام الفرس الى بني هاشم كرها بالعرب كانت العامل الاكبر فى سقوط الدولة الاموية (٣) .

---

(١) — نجيب الارمنازى ، الشرع الدولي فى الاسلام ، ص ١٣٢

(٢) — H. Lammens, "Al Sham " , Ency. of Islam , p. 293

(٣) — P. Hitti, p. 279 - 285 .

وزوال الامويين طويت صفحة مجيدة من تاريخ سوريا وانقضى ذلك العصر اللامع الذى يعد وحيدا فى حياة هذه البلاد . على انها لم تفقد اهميتها بعد ذلك التاريخ . فلقد ظلت موئلا للعصبية العربية ومظهرا للقوة السياسية حتى انه لما ضعف خلفاء بغداد عن حرب الروم كانت الامارات الشامية تدافع عن سوريا وعن العراق ايضا ه ولما اطبقت اوروبا من شمالها الى جنوبها على الشرق فى الحروب الصليبية كانت الشام تناضل عن نفسها وعن الاسلام حتى ردت الصليبيين على اعقابهم بعد معارك دامت قرنين كاملين . وسنرى ذلك بالتفصيل حين ناتى بعرضها لتاريخ سوريا فى تلك الاثناء .

وبقيت سوريا على هذه الحال مقاطعة تحت سلطة الخلفاء العباسيين الى ان بدا الهرم يدب فى جسم تلك الامبراطورية معلنا عن نفسه باستيلاء الجند من غير العرب على امور الدولة يديرونها كما يشاؤون . فكان من نتيجة ذلك ان انقسمت البلاد دويلات وامارات واخذ كل وال يستقل فى مقاطعته ويقطع الخراج عن بغداد . خلال هذا العهد الذى امتد حتى مجيء الفاطميين تعاقب فى الحكم عليها الطولونيون فالاخشيديون فالحمدانيون . وكانت تشكل قسما كبيرا من ممالكهم المنفصلة تمام الانفصال عن الخلافة العباسية . ثم ما لبثت هذه البلاد ان دخلت فى حوزة الفاطميين الذين انتزعوها من ايد الحمدانيين والاخشديين واصبحت قسما من امبراطوريتهم الفسيحة الارجاء . واذا كان عهد الفاطميين زاهرا فى مصر بالعمران والادب فانه كان فى سوريا مملوءا بالفوضى (١). نستدل على ذلك من غزوات البدو التى لم تنقطع كل ما شعر هؤلاء بضعف الادارة المركزية ، ولقد اسس بنو مرداس المنتمون الى قبيلة بني كلاب القيسية حوالي العقد الاول للقرن الحادى عشر للميلاد دولة فى حلب رحب بها السكان لتفورهم من الحكام الفاطميين (٢).

لم يكتب لسوريا الاستقرار فى تلك العهود بل ظلت مسرحا للفوضى السياسية تخرج من يد دويلة الى يد اخرى حتى وقعت فى ايدى السلجوقيين فازداد بوجودهم الخلل والاضطراب وحدثت فى زمانهم حروب شديدة بين احزابهم المختلفة مما ادى لتجزئة البلاد وانقسامها الى عدة اعمال مستقلة تخرج منها السواحل التي

---

(١) - H. Lammens, T.I. p. I53

(٢) - H. Lammens, La Syrie, T.I p. I53.

ظلت في ايدي الفاطميين . ويجب ان لا يغيب عن البال تاثير السلاجقة في نظام البلاد الاجتماعي والاقتصادي فالى ايامهم يرجع نشوء الاقطاعات العسكرية التي تطورت فيما بعد واخذت تتبلور على الشكل الاوروبي تقريبا في ايام الصليبيين (١).

بينما كانت سوريا على هذه الحال وكان السلجوقيون يؤسسون ملكهم في الشام بداهم الغرب باجمعه هذه الديار ، فقاست البلاد من جراء ذلك الويلات من الفوضى والشرور والويلات . ابتدات تلك الرواية التي مثل اغلبها على مسرح سوريا في سنة الف وست وتسعين ميلادية ، وانتهت بعبور مئتين واحدى وتسعين سنة بعد الالف فدامت بذلك قرنين كاملين تركت خلالهما اثارا لمّا تمّحي حتى اليوم .

ان المؤرخين العصريين يقسمون الحروب الصليبية الى ثلاثة ادوار ؛ فيمتد الدور الاول وهو دور الاجتياح من حصار انطاكية حتى قيام الاتابكة واسترجاع الرها من ايد الصليبيين . ويبتدئ الدور الثاني وهو دور الاسترداد بظهور الاتابكة وينتهي بالانتصارات الباهرة التي احرزها صلاح الدين الايوبي . اما الدور الثالث فيمثل دور حروب صغيرة كانت سجالا بين الفرنج والايوبيين ثم من بعدهم المماليك الذين تمكنوا في النهاية من ان يكيلوا للصليبيين الضربة القاضية ويجلوهم نهائيا عن هذه الربوع (٢).

وهكذا اسدل الستار على تلك المأساة التي مثلت فصولها على مسرح الشرق العربي وانتهت دون ان ينتهي تاثيرها السيء . فلقد بذر الصليبيون بذور التفرقة والانشقاق بين اهالي البلاد وبكوا النظام الاقطاعي في الارض ، ثم تركوا وراءهم خرابا ودمارا فضلا عما احدثوه من الفوضى السياسية والاجتماعية التي فرقت شمل السكان ويؤيدنا في هذا الراي ما جاء في كتاب " تاريخ العرب " للاستاذ حتى حيث قال : بان الصليبيين لم يتركوا خلفهم سوى الفوضى والدمار وما اورثوه من التباغض والتحاقد بين النصارى والمسلمين (٣).

رحل الصليبيون عن هذه البلاد فاصبحت تحت سلطة محرريها المماليك الذين امتد سلطانهم من مصر حتى شمل سوريا وقد طال حكمهم نحو ثلاثة قرون كان لهم في اثنائها بعض الحسنات فقد صدوا عنها جيوش هولاكو وطردوا منها الصليبيين

---

(١) H. Lammens, "Al Sham " , Ency. of Islam, p. 296

(٢) P. Hitti, p. 636 - 637 .

(٣) P. Hitti, p. 659 .

وافنوا الثقافة العربية بتشجيعهم للعلم والادب ثم تركوا بعدهم شيئا من الاثار العمرانية وكانت سوريا تحكم في ايامهم على شكل مقاطعات منفصلة يدير كلا منهما نائب السلطان ويلقب بملك الامراء . لكن هذه الامور جميعها يجب ان لا تغلق ابصارنا عن مساوئ ذلك العهد . فلقد شهدت سوريا ابانه محنا كثيرة وكانت الفوضى ضاربة اطنابها والاستقرار معدوما في هذه الديار (١) . فلما فتح الاتراك العثمانيون هذه الاصقاع واقصوا المماليك عن حكمها زالت بزوالهم اخر الدويلات العربية التي نشات اثر تفكك الامبراطورية العباسية واصبحت سوريا بعد ذلك التاريخ : مقاطعة من تلك البلاد التي كانت تخضع بالقوة لسيطرة العثمانيين (٢).

كانت سوريا حتى ذلك الحين عربية في ثقافتها وتقاليدها ، ومع انها بدات منذ الانقسام الذي طرا على جسم الدولة العباسية بالانحطاط تدريجيا في مجاري حياتها كافة ، الا انها ظلت بعيدا عن التفسخ الكامل والانهيار المريع اللذين اصبحا من خصائصها في العهد العثماني . ويمكن للمرء ان يقول على وجه التقريب بان سوريا انتقلت بعد هذا الفتح من حالة الفوضى الجزئية الى الخراب المطلق بل من النور الى الظلام . (٣).

حكم العثمانيون في سوريا مدة اربعة قرون كان لها اوخم العواقب واسوأها فان اكثر مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تعود بجذورها الى تلك العهود البائدة التي اضرت بها وحدت من حيويتها وعرقلت تطورها التقدمي الى حد كبير . ولا عجب فقد كان العثمانيون لا يغشدون من الحياة سوى القوة التي تواهلهم وتمكنهم من ان يمتصوا دماء الشعوب . يدلنا على ذلك مسلكهم الذي سلكوه في حكم امبراطوريتهم التي تراصت اطرافها وشملت جميع انحاء العالم العربي آنذاك . فقد قسموا البلاد في اول عهدهم الى ايالات عسكرية يسيطر على كل منها وال يعين من الاستانة . وكان ذلك الوالي لا يلتفت الا للمدن المهمة التي تشملها سلطته دون ان يعني بداخل البلاد التي كانت تترك لارباب الاقطاع وذوي النفوذ يتصرفون بها كيفما يريدون شرط ان يؤدوا شيئا من المال الى خزانة السلطان (٥) .

---

(١) — H.Lammens," Al Sham " , Ency. of Islam, p.

(٢) — P. Hitti , p. xxi .67I.

(٣) — G. Lebon , La Civilisation des Arabes, p. I37 .

(٤) — بعض المؤرخين يذكرون كلمة " بشالق " عوضا عن " ايالات " .

(٥) H. Lammens. "Al Sham", Ency. of Islam, p.

ولا يستغربن احد ان سمع ما كان يقوم به ولاة ذاك الزمان من ظلم وعسف وارتشاء ، فقد كانت الولاية بحد ذاتها تباع وتشرى من الصدر الاعظم في اسطنبول بمبلغ من المال يحدد بالمزايدة ، لذلك كان اكثرهم من ساقطي الاخلاق اصحاب الموبقات ، ولم يقتصر هذا الامر على الحاكم (الباشا) فقط ، بل تعداه الى سائر اصحاب المناصب العليا كالدفتر دار (اي مدير المال) ، مثلا . لهذا كنت ترى الموظف اذا ما تسلم منصبه الجديد يسعد الى ان يستعيد المال الذي دفعه ثمن منصبه وان ياخذ فوق ذلك اكبر مبلغ يمكنه جمعه ربحا صافيا(١) .

نستنتج من كل ما تقدم بان الدولة العلية كانت قائمة آنئذ على النهب والسلب تدعمها القوة في ذلك لاجل اشباع رغبات اولى الامر وارضاء شهواتهم وملذاتهم . ولقد جاء ما يؤكد هذا الراي في تاريخ مؤلفه جودت اذ قال : "ان الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة الى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الاسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا اوقاتهم في حظوظ انفسهم وشهواتهم يقيمون في العاصمة القصور ويفرشونها بانواع الاثاث والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم ، فاضطروا الى الارتشاء وبيع المناصب بالمال وتلزم البلاد واقطاعها بالاثمان الفاحشة ، فضاق ذرع الاهلين واضطر كثير من اهل الذمة ان يهجروا الارض العثمانية الى البلاد الخارجية . واذا صادفت العناية ان تولى الصدارة رجال على شيء من حسن الادارة وقوة الارادة ، وبعد النظر فان رئاسة النظار كثيرا ما تولاها في السلطنة العثمانية الندماء السخفاء بل الطباخون والطبالون والمزينون والبساتنة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي . ويمكننا حصر مصائب هذا الدور في مصادر ثلاثة وهي ظلم الوالي اذا كان عاتيا مرتشيا وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها في الجبال والسهول وكبار ارباب النفوذ في المدن . وهذه الطبقة تطورت تطورا جديدا في عهد العثمانيين فكانت من اكبر الاسباب في فساد البلاد ولو صلحت وسلم بعضها من ظلم بعض لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي ان يحلوا مباشرة في هذا القطر عملا مضرا (٢) .

---

(١) – كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ص ٣٠٤ .

(٢) – كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

وخلال تلك العهود الاولى التي امتازت بصلابتها وقساوتها طوال على تاريخ البلاد حادثتان لا نجد بدا من ذكرهما لما تركتا من بذور الفساد التي كتب للسكان ان يجنوا ثمارها المرة فيما بعد . اولاها المعاهدة التي عقدها السلطان سليمان القانوني مع فرنسوا الاول ملك فرنسا عام الف وخمسمائة وست وثلاثين ، وكان من نتائجها تغلغل النفوذ الفرنسي اقتصاديا ودينيا وثقافيا في الشرق (١) . وثانيهما حملة ابرهيم باشا المصري الذي احتل البلاد فترة من الزمن ما لبث ان تراجع بعدها تاركا وراءه بعض الحسنات وبعض السيئات .

يشبه الاستاذ كرد علي الشام بعد مجيء الحكومة المصرية " بحال من كان في محنة مستديمة وشظف عيش ثم حسنت حالته بان علم النظام والسكون ، وغذي بالاطايب فتغيرت طبيعته وتبدلت نفسيته " ولو ثم يزيد على ذلك بقوله : " ولو طال عهد المصريين اكثر لسعدت البلاد حقيقة وايقن حتى من كانوا يذمون من دماء الامة على العهد العثماني ان طريقة المصريين في المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في انفاذ القوانين وتقليد الغرب في كل امر جوهري ، افضل طريقة لراحة البلاد . وكان يرجى ان يبقوا في مدة قصيرة مما تاصل في فطرتهم على توالي القرون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاعات الذين حدم المصريون من تجارتهم الشائنة التي الفوها زمن العثمانيين وهي الاتجار بالجباية يجبونها اضعافا ويسلكون الباقي من دم الامة بمرأى من الحكومة ومسمع " (٢) . غير ان المصريين لم يذهبوا من سوريا دون ان يخلفوا بعض المساوئ التي جعلت ابناءها ينفرون من حكمهم ويظهرون لهم العصيان بالثورات . فلقد انقلوا كاهل البلاد بضرائبهم واسسوا العداوة بين الدروز والمسيحيين الذين اصبحوا بعد ذلك التاريخ عرضة للدسائس الاجنبية التي مقدمة لنفوذهم وسيطرتهم على هذه الربوع (٣) . ولما انسحب ابرهيم باشا من سوريا وعادت البلاد تحكم من قبل العثمانيين رجعت اليها مظاهرها السابقة واسترد ارباب النفوذ والاقطاعيات سالف مجدهم المبني على تقطيع اوصال الشعب واستنزار حيويته . ولم يكن من مصلحة الدولة ان تسود الالفة بين الطوائف وان يتعامل اهل الوطن الواحد

---

(١) — H. Lammens , La Syrie, V.2. p. 83

(٢) — كرد علي مخطط الشام ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

(٣) — المصريون في سوريا ولبنان ، محاضرة القاها الاستاذ ابرهيم ابو سمرة غانم في نادي اخوة القديس يوسف في بيروت (من مجلة الشرق سنة ١٩٣٢).

بالحسنى ، فكان اكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني ويساعدون على اثارة نار الحقد والبغيضة بين الناس(١) .

يعجب كل انسان حين يقرأ تاريخ تلك العهود المظلمة كيف تسنى للامبراطورية العثمانية ان تظل ملتئمة الشمل وسط تيار المطامع الاوروبية الاستعمارية التي كانت تتنافس على اقتسامها وتقطيع اوصالها . لكن كلمة " التنافس " وحدها توحي للمرء دون تردد بالجواب ، اذ لو اتفق المتنافسون على غاياتهم وآرائهم لامحت بسرعة معالم تلك الامبراطورية من سفر الوجود . زد على ذلك ما قام به بعض اولي الامر يتداركون النهاية المحزنة — التي لم يكن منها بد لو ظلت امبراطوريتهم تنهج نهجها البالي — في الاصلاح والتنظيمات . فقضى السلطان محمود الثاني على الانكشارية عنصر الفساد الاعظم وانقذ البلاد من ظلمهم الذي لم يعد يحتمل ولا يطاق . ثم جاء ولده عبد المجيد الاول واصدر (فرمان كلخانة) في الثالث من تشرين الثاني ١٨٣٩ لتحسين الادارة وتنظيم الجندية واصلاح نظام جباية الضرائب ، فكان لهذه الاصلاحات اثرها الطيب في النفوس رغم انها لم تبلغ الغاية المرجوة لان رجال الحكم قد شغلوا عن تنفيذها بالحروب الاوروبية المتوالية التي زادت في معالم الفوضى والخراب(٢) . عمد العثمانيون

عمد العثمانيون بعد ذلك مرارا عديدة الى ابطال (رجال) الاصلاح في جهاز الدولة بيد ان الفشل ظل يلازمهم لاسباب عديدة ، وبقيت حالة البلاد التي ظلت خاضعة لسيطرتهم كما كانت في السابق ترتع فيها الفوضى ويرافقها الضعف والانحلال . لذلك نرى بانه لما تسلم السلطان عبد الحميد الثاني عرش ابائه واجداده وجد امامه نقمة عامة على الوضع الراهن آنئذ والحاحا متواصلا من المفكرين بطلب الاصلاح . فمنح الامة دستورا عام ١٨٧٦ وكان قصير الامد رجعت بعده البلاد تئن من جور السلطان ودسائسه . والذين لا يزالون يذكرون العهد الحميدي يتمولون من تلك المظالم التي عرفتها البلاد في ايامه حتى غدا رمزا للاستبداد في الحكم . فكان ذلك سببا لنشوء الاحزاب السرية التي (كان) رائدها الاصلاح الاجتماعي والاداري والسياسي .

---

(١) — كرد علي ، خطط الشام ، ج ٣ ، ص ٧٥

(٢) — امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٥١ — ٥٢ .

وجدير بنا الا ننسى ما قام به العرب من النضال فى ذلك السبيل وكانوا يحملون مع الاتحاديين تنازعهم نفس العقيدة المشبعة بالافكار الحرة ، حتى قيض لهم النصر وخلصوا السلطان المستبد الغاشم محلفين بذلك عهدا جديدا بابناء البلاد المظلومين غير ان الامال التي بناها العرب على الانقلاب العثماني لم تكن الا سرابا سرعان ما ظهرت حقيقته حين كشف الترك عن نياتهم الاصيلة بتتريك شعوب الامبراطورية ودمجهم فى بوتقة القومية التركية التي عملوا على احيائها وتنميتها . فكان ذلك مبعث قلق لابناء العروبة جعلهم يؤكدون على مطاليبهم فى الاحتفاظ بلغتهم وثقافتهم ثم بجعل بلادهم تدار على اساس لا مركزى فيتمتعون فى ذلك بشيء من الاستقلال الداخلي المرغوب. لكن هذه المطاليب لم تلق اجماعا ان فى القبول او فى الرفض من قبل اقطاب جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا ينقسمون ازاء المسالة العربية الى ثلاثة اقسام (١).

١ - فريق يقول بمنح العرب استقلالا داخليا فى داخل امبراطورية طورانية للترك فيها المقام الاول ، وزعيم هؤلاء انور باشا .

٢ - فريق الطورانيين الغلاة ، ويقول باخذ العرب بالشدة وتتريكهم والتنكيل بزعمائهم ومفكريهم ومن هؤلاء احمد جمال باشا .

٣ - فريق المعتدلين وهو اقلية ، ويقول بالتساهل مع العرب ومنحهم لا مركزية ادارية وزعيم هؤلاء طلعت باشا .

وظلت الحال بعيدة عن الاستقرار تتخذيوما طابع الوعود واخر طابع النذير ، وقضية العرب تتارجح فى الميزان ، حتى جاءت الحرب العظمى وانحاز الاتراك الى معسكر الالمان ، فقلبت جميع الامور راسا على عقب ووقف نشاط العرب السياسي الى حين . فى تلك الفترة من الزمن التى انتهت بانتفاض الامة العربية دفعة واحدة الى الثورة ضد الاتراك ، كانت سوريا تحكم بيد من حديد سلطها عليها جمال السفاح . وكان عهده عهد انتقام وظلم وغدر جعل الامة العربية تغلى كالبركان ثم تثور لرفع الضيم ووضع حد لتلك المأساة . ابتدا ت تلك الثورة بتفاهم العرب - يراسهم الشريف حسين الهاشمي - ثم بتعاونهم مع الحلفاء على طرد الاتراك

---

(١) - Lamouche, Histoire de la Turquie, p. 265

من هذه البلاد التي تم تحريرها يوم دخل الجيش العربي والجيش الانكليزي معا الى دمشق في الواحد من تشرين الاول سنة ١٩١٨ فاعقب ذلك انسحاب الترك من سوريا التي اضحت بعد ذلك التاريخ في كفة القدر تنتظر حظها الجديد .

ولئن تساءل المرء عما تركه العثمانيون من الاثر في ديار الشام فلن يجد جوابا يقول بغير الدمار الاقتصادي والتفكك الاجتماعي والتاخر الثقافي . وكان من نتائج حكمهم ايضا ان قويت الرابطة الدينية التي استغلوها لتثبيت مركزهم وضعفت رابطة الوطنية التي تجمع بين القوم الواحد بل تلاشت على مر الاجيال . وما ذلك الا لانهم كانوا يحكمون على اساس سياسة " فرق تسد " التي جعلت امر التواشج القومي صعب المنال . وهناك اسباب اخرى عملت بدورها على فصل عرى الروابط بين ابناء البلاد نكتفي بالتلميح على اهمها وهي ثلاث :

١ = فقدان المناهج الموحدة في المدارس والكليات التي كانت فاسدة بالية من اساسها لا يرتجى منها خير للتربية الوطنية والتعليم .

٢ = وجود طوائف مختلفة وانعدام الوحد السلمي الذي يسهر على توافقها وانسجام بعضها مع بعض ، هذا فضلا عن الدسائس الاجنبية التي كانت تعمل دائما لاثارة روح الحقد والضغينة بينها .

٣ = قلة طرق المواصلات ووسائل نقل الاخبار التي تعد من اهم العوامل لتمكين روح التفاهم والتقارب بين السكان (١) .

لهذا كانت مهام الدور الفيصلي شاقة تتطلب جهودا جبارة للاصلاح وازالة اثار العهد السابق ، ولو قيض للملك فيصل ان يظل متربعا على عرش سوريا المستقلة لسار هذا القطر العربي في الفط طريق السعي والنهوض ، ولكن مطامع الاستعمار ابت ان تبقي البلاد حرة مستقلة ، فحنث الحلفاء بوعودهم التي قطعوها للعرب اثناء الحرب ، واستهتروا بكلامهم المعسول الذي كانوا يوجهونه للعالم باسم الانسانية معاهدين انفسهم على حفظ حقوق الشعوب الصغيرة واحترام حرياتها ، وتقدموا بنص جديد يسموه الانتداب بغية التهذيب السياسي كما زعموا وما يبغون في الحقيقة سوى الاستعمار والاستثمار . والدليل على ذلك واضح لا يحتاج الى تبيان . لان مطامع فرنسا في سوريا

---

(١) Cedars of Lebanon, Syria Reborn, p. I3

ترجع الى امد بعيد ، كما ان رغبة انكلترا فى جعل هذه البقعة من سواحل البحر الابيض المتوسط تحت نفوذها تعد ركنا من سياسة الامبراطورية الرامية الى تأمين طريق الهند ، وما كان المانع من اقتسام هذه الاقطار العربية قبل الحرب الا سياسة التوازن الدولي التي كانت تتبعها بريطانيا فى الاحتفاظ بسلامة الامبراطورية العثمانية . فلما زال المانع بتحالف الدول المتنافسة اثناء الحرب (١) اخذوا يعدون العدة ويتشاورون على تقسيم الشرق الادنى الى مناطق نفوذ فيما بينهم ، وجرت بذلك اتفاقات سرية عديدة كانوا يوزعون على انفسهم فيها قطعا من الامبراطورية العثمانية دون اى حساب لحرية شعوبها (١) .

جرى كل ذلك رغم الوعود التي قطعتها بريطانيا للملك حسين لان معاهدة " سايكس ـ بيكو " المشهورة كانت مناقضة لروح التفاهم الانكليزى العربي ، مجحفة بحق العرب فقد روا لمضمونها واحتجوا حينما بان لهم ما تنطوى عليه ، لكنهم عادوا الى املهم السابق بعد تأكيد جديد لما سلف من الوعود (٢) . ثم تعاقب الغدر الاجنبي فتفاهم الفرنسيون والانكليز بعد فتور قصير وانسحب الجيش البريطاني من سوريا تاركا هذه البلاد فى كفة القدر تظللها رحمة فرنسا الطامعة الى جعلها من ممتلكاتها فيما وراء البحار . وعبثا حاول الامير فيصل الاحتجاج على ذلك الجلاء لان الانكليز افهموه بانه تدبير ضرورى اقتضته الظروف ، ثم نصحوه بان يتصل مباشرة بالحكومة الفرنسية علّه يصل الى اتفاق مرض للطرفين . فعمل الامير بهذا الرأى وذهب فورا الى باريس وفاوض رئيس وزراء فرنسا آنئذ جورج كليمنصو فتوصل الرجلان الى حل لم ينفذ فيما بعد لاسباب ترجع الى سوء نوايا الفرنسيين (٣) . وكانت سوريا ابان تلك الايام مقسمة الى ثلاث مناطق المنطقة الغربية ، التي تمتد من سواحل لبنان حتى الاسكندرون ويحتلها الفرنسيون ، والمنطقة الجنوبية ، ويحتلها الانكليز ، والمنطقة الشرقية (اى سوريا الداخلية) ويحتلها الجيش العربي . وكانت دمشق عاصمة الحكومة الفيصلية ومقر المؤتمر السورى الممثل لاغلب انحاء البلاد .

هكذا كانت حالة سوريا لما انتخب المؤتمر السورى الامير فيصل ملكا عليها معلنا بذلك استقلالها التام الناجز الذى لا يتقيد بشروط ، فاحتج الحلفاء على

---

(١) — G. Antonius , Arab Awakening, p. 243, 244

(٢) — Mufarrig, p. 81

(٣) — Mufarrig, p. 103

هذا الامر صدقين بان مستقبل البلاد منوط بقرارات جمعية الامم التي لم تتخذ بعد وظلت الحالة معلقة على ذلك الشكل حتى اجتمع اركان الدول العظمى في سان ريمو وقرروا نظام الانتداب لهذه البلاد (١) .

ليس من شأننا ان نبحث في هذا الفصل القصير مناقضة قرارات سان ريمو لروح ميثاق جمعية الامم الذي قال باستشارة الامم الصغيرة ومحريتها في اختيار الدولة المنتدبة ، ولا في تقارير لجنة الاستفتاء الاميركية التي بينت بوضوح مطالب السوريين وآمالهم ، بل نكتفي بالاشارة الى ان ذلك المؤتمر جعل سوريا من نصيب الانتداب الفرنسي دون الالتفات الى رغبات ابنائها .

وتسارعت الحوادث الاليمة بعد ذلك التاريخ ، فارسل الجنرال غورو انذاره المعروف الى الملك فيصل ، ولم يتريث الى ان يصله الجواب بل امر بالهجوم على دمشق التي سقطت في ايدي الفرنسيين اثر معركة ميسلون. فمنذ ذلك الحين وسوريا تئن تحت نير المستعمرين الذين برهنوا بالفعل على ان الانتداب مرادف للاستعمار ليس الا .

قال فكتور بيرار عضو مجلس الشيوخ الفرنسي في خطبة له امام ذلك المجلس بانه كان لحملة سوريا بعض المجندين والانصار ، وانه لا يجد بدا من التصريح بان الغرفة التجارية في ليون وشقيقتها في مرسيليا ، كان لهما التاثير الاكبر في حملهم على ركوب هذا المركب . لانهما هاتين الغرفتين التجاريتين تعتقدان ان سوريا مرعى خصيب وانهما ستجنيان منها ارباحا لا يستهان بها (٢). على ان الاستاذ هوكينغ يبين لنا بصورة اجلى دوافع السياسة الفرنسية في هذا الباب ، فهو يرى بان الاقتصاد عنصر عرضي ، اما المهم فهو المركز الممتاز اينما وجد حتى ولو كان فوق النجوم (٣). ولهذا الرأي براهين وشواهد لا تقبل الجدل ، لانه رغم الخسارة المادية (٤) التي تكبدها الفرنسيون في هذه البلاد لا يزالون يطالبون بمركز ممتاز حرصا على نفوذهم الادبي وخوفا على زواله .

---

(١) — A.K. Hourani , Syria & Lebanon , p. 55

(٢) — W.E. Hocking , Spirit of World Politics, p. 241

(٣) — W.E. Hocking , p. 241

(٤) — Comte de Fels, Le Mandat Syrien, Revue de Paris, V I, p. 182

ولنلق الان نظرة عامة على هذا العهد الذى تميز بقساوته وقلة جدواه فلم تجن البلاد فى خلاله سوى التأخر ان نسبيا او كليا فى كافة مجارى حياتها والسبب فى ذلك هي الروح الاستعمارية عامة وتخوف الفرنسيين من الفكرة العربية وما تجره من ذيول خاصة ، اضف الى هذا نقمة اهل البلاد على فرنسا لما علموه من اساليب حكمها القاسية فى شمالي افريقيا فكان لا بد والحالة هذه ان يكون الخصام مستمرا والعراك عنيفا بين الفرنسيين الذين عملوا على تجزئة البلاد والقضاء على الروح العربية بشتى الاساليب ، والسوريين الذين لجأوا الى المقاومة السلبية والثورات الدامية دون حساب للخسارة فى الارواح وفى الاموال (١) .

اتبعت فرنسا تلك السياسة الحمقاء بشدة لا تعرف الهوادة فى السنوات الاولى من تاريخ الانتداب ، ففصلت جزءا كبيرا من الاراضي التابعة لسوريا على الرغم من رغبات سكانها وضمتها الى جبل لبنان - مرتع نفوذها - فاحدثت بذلك ما ندعوه اليوم بلبنان الكبير ، وخلقت مشكلة سياسية كبرى لعبت دورا مهما فى نضال السوريين الذين لم يقبلوا ابدا ان يفرقوا بين الوحدة والاستقلال ولئن تغاضوا عن اثارتها فيما بعد فما ذلك الا لاسباب سياسية وقتية ولانهم ايضا يعتبرون لبنان جزءا من الكيان العربي المنشود . ولم يقتصر عمل المندوبين الفرنسيين على فصل جزء حيوي من سوريا وضمه عنوة الى لبنان بل تعداه الى تقسيم ما تبقى من سوريا الى عدة دويلات لا يمكن لاى منها ان تشكل كيانا سياسيا او اقتصاديا مستقلا . وحجتهم فى ذلك انهم كانوا يلبون رغبات السكان المختلفى النزعات ، وان البلاد لم تكن على مستوى واحد من الرقي يؤهلها للاتحاد ، غير ان الحقيقة تختلف جدا عما تذرعوا به من اسباب التفرقة التي لم يأتوا بها الا لستر نياتهم فى قتل الروح العربية وجعل الساحل منطقة لنفوذهم وسبيلا لتثبيت اقدامهم فى تلك الربوع .

امتد هذا الدور القاسي حتى نهاية الثورة السورية - التي اشعلها الفرنسيون بغباوتهم وخشونتهم - وكانوا يحكمون البلاد فى اثنائه حكما دكتاتوريا مستبدا . لكن تلك الثورة وما تخللها من الام وويلات جعلت الساسة الفرنسيين ينهجون نهجا جديدا فى سياستهم وبدأوا يظهرون رغبة بالتعاون والتفاهم ، هذا مع العلم بان الخطة الجديدة التي اتبعوها لم تكن ناتجة عن تغيير جوهرى فى سياستهم - التي ظلت تعمل طبقا لمفهومها القديم بل كانت اسلوبا اخر للوصول الى غاياتهم التي لم تتبدل .

---

(١) - G. Antonius, Xp. 369 .

لهذا نجد تاريخ سوريا في السنوات العشر التي اعقبت خمود الثورة حافلا بحوادث المفاوضات والانتخابات يتخللها الاحتجاج والاضراب اللذان كان يستند عليهما الوطنيون للتعبير عن مشاعرهم تجاه افعال الفرنسيين .

في غضون هذا الدور الثاني اجريت الانتخابات مرتين في سورية ، فانبثق عن الاولى المجلس التأسيسي الذي وضع لاول مرة دستورا للبلاد والذي لم يطل عمره لان اعضاءه ابوا ان يرضخوا لاوامر المفوض السامي في اقرار بنود تحل مكان غيرها في الدستور وكان يراد بها تقييد الامة والنيل من استقلالها . وانبثق عن الانتخابات الثانية التي حدثت عام ١٩٣٢ مجلس اخر كان اغلب نوابه من العناصر التعاونية الذين يدعمهم الفرنسيون في اثناء الانتخاب وكان يأمل منه ان يصادق على معاهدة تملى عليه فيصبح اهل البلاد بعد ذلك امام الامر الواقع الذي لا مفر منه ، وتذهب التضحيات السابقة هباء تذروها الرياح . لكن الفرنسيين باءوا بالفشل حين ما رفض ذلك المجلس الذي وضعوا فيه آمالهم مشروع تلك المعاهدة التي لا تتفق ومصلحة السوريين . اما حكومات هذا الدور فكانت العوبة بيد المستعمرين يعين رجالها ويعزلون بامر المفوض السامي وتبعا لما يؤمل منهم في تنفيذ اوامر الدولة المنتدبة التي كانت تتدخل حتى بصغائر الامور .

بقي علينا ان نذكر شيئا عن حالة البلاد وان نبين شعور الاهلين العام ولعل اصلح طريقة لاظهار ذلك هو الرجوع الى ذلك الاحتجاج الذي رفعه وفد مؤلف من جميع طبقات الاهلين المعقود في منزل فخري البارودي في دمشق الى وزارة الخارجية الفرنسية والى عصبة الامم . وهذا ملخص عن الاصل : " نحتج على هذا الانتداب الذي فرض على القطر السوري بدون استشارة سكانه والذي ما زال يسير من سيء الى اسوا بتكرار الاساليب الخاطئة في ادارته وتتبع التجارب على وجوه لا تأتلف مع حاجة البلاد ومطالب ابنائها المشروعة ، فجزأ هذا القطر الى دويلات ضعيفة قائمة على تفريق الاديان والمذاهب ، وحارب اصحاب الكفاءات العلمية والعقائد الوطنية واقام على رأس الحكم اشخاصا لا يمتون بصلة الى الحنكة الادارية والمبادئ القومية والعلم الصحيح وجعل هؤلاء آلات في يده لتحقيق اغراض هدامة لمصلحة الامة السورية ومنافعها ، لذلك فنحن نحتج :"

١ - على الوضع السياسي المتقلقل .

٢ - على الاوضاع الادارية الشاذة ، بل على الاحتكارات الضارة ، وحماية اصحابها بصور لا يجيزها عدل ولا قانون .

٣ - على اسلوب التشريع القائم على تأمين مصلحة اشخاص دون اخرين .

٤ - على حرمان الامة من حق الانتخاب في المجالس البلدية والادارة ، والغرف التجارية والزراعية ومجالس الاوقاف مما كانت تتمتع به في العهد العثماني والسير على اسلوب تعيين المحاسيب والصنائع .

٥ - على التشريع الجمركي القائم على اساس ترويج الصناعات الاجنبية ومناهضة الانتاج الوطني بتجريد الزراعة والصناعة المحلية من الحماية الواجبة لها -

٦ - على الاسلوب الذي توضع وتنفذ به ميزانيات الدول وما يحيط بها من ظلم الجباية وتبذير الانفاق في غير الوجوه النافعة (١) .

ان هذا الاحتجاج الصارخ علاوة على ما يعكسه لنا من القلق العام ونفاذ صبر السكان تجاه الوضع القائم ، يظهر لنا ايضا مبلغ ما كان يوضعه عمال الانتداب من الضرر بابناء هذا القطر . فلما قامت البلاد باحياء ذكرى الزعيم ابرهيم هنانو وقاومها الفرنسيون بان زجوا بعض زعمائها في السجون ، وابعدوا البعض الاخر الى اماكن نائية ، هبت الامة لتثأر لكرامتها بشكل نضال لا عنفي جديد ، فاضربت المدن السورية اضرابا شاملا كاد ان يشل حياة البلاد الاقتصادية ويؤدي بها الى الخراب. عندئذ اقر المفوض السامي الكونت دي مارتيل بخطئه الفادح وعاد الى سياسة اللين والتفاهم التي ادت في النهاية الى عقد معاهدة بين البلدين . ومن اهم ما ورد في تلك المعاهدة هو اعتراف فرنسا بوحدة سوريا باستثناء الاراضي التي سلخت عنها والحقت بلبنان . فجاء المجلس النيابي ممثلا لجميع انحاء البلاد التي اصبحت موحدة من الناحية السياسية بعد ذلك التاريخ .

ولقد ظن اغلب الناس بان فرنسا قد عدلت خطتها تعديلا اساسيا تجاه سوريه وايقنت بعدم فائدة سياسة المماطلة والمداهنة ، لكنهم ما لبثوا ان عرفوا الحقيقة التي لا تتغير حينما جاد الفرنسيون بميناء الاسكندرونة وقدموه هدية رخيصة الى تركيا ، زد على ذلك تسويفهم في ابرام المعاهدة التي رضي بها السوريون ثم تأجيلهم

---

(١) - راجع جريدة الايام الصادرة في ٢٣ تموز سنة ١٩٣٥ .

لها يوم عطلوا المجلس السورى بعد ان مارس الحياة النيابية المحدودة مدة ثلاث سنوات ، ثم نشبت الحرب ، فضاق نطاق الادارة مدنيا الحربية التى كان يقوم بها مجلس المديرين المعين بمرسوم من المفوض السامي ، وازدادت الصالح التي تديرها السلطة العسكرية الى حد جعلت البلاد تحكم مباشرة من الفرنسيين .

هزمت فرنسا فى الغرب وقامت لجنة التحرير الوطنية تناضل خارج بلادها لطرد الالمان ، فمدت بريطانيا لها يد المساعدة وكان من جراء ذلك ان دخلت جيوشهم سوريا الى سوريا ، التي انتقلت بعد الاحتلال من ايدى الفيشيين الى ايد الديغوليين . ولعل اهم حادث فى ذلك الحين هو اعتراف لجنة التحرير الوطنية والحكومة البريطانية باستقلال البلاد التى رغبتا فى ان تشاهدانها تسير نحو حياة دستورية حرة (١) . فما ان زال عنها الخطر المحورى حتى اعيدت لها حياتها الدستورية التي لاتزال تمارسها حتى اليوم بالرغم من افعال الفرنسيين التى ارادوا بها ان يسلبوا هذه الامة مرة اخرى حقها من السيادة والاستقلال .

هذه صفحة مقتضبة عن تاريخ سوريا فى عهد الانتداب عرضنا فيها بشكل يلائم غاية هذه اللمحة التاريخية مراحل القضية السورية فى ذلك العهد والذى اورث البلاد كثيرا من المشاكل الصعبة . وان خير طريق نسلكه للتدليل على صحة هذا القول هو ان نبين ولو باختصار بعض ما خلفه الفرنسيون لهذه الامة فى مدة انتدابهم الذى مارسوه فى ربوع الشام . ففي الناحية الاقتصادية كانت اعمالهم سببا لافقار السكان وتبذير ثروة البلاد لان كل ما عملوه لم ينتج سوى الاحتكارات وضياع الاموال الاحتياطية وبقاء القديم على قدمه . فسوريا اليوم تواجه مشاكل اقتصادية عديدة تعود اغلبها الى سوء ادارتهم وقلة درايتهم او الى ما كانوا يضمرونه فى نفوسهم من حب للكسب والاستثمار (٢) .

وآثار الانتداب وافعاله لم تكن اقل ضررا فى النواحي الاخرى . فلقد جزأوا سوريا كما اسلفنا وايقظوا فيها النعرات الانفصالية المبنية على الطائفية والعنصرية ثم عملوا على خلق جيل فرنسي المشرب والثقافة يكره العروبة ويرى فيها خيالا يستحيل تحقيقه . وكانت حرية الرأى والاجتماع مخنوقة فى ايامهم مما جعل التعرف على الروح الديموقراط

---

(١) — A. K. Hourani, Syria & Lebanon, p. 242-244, 245.

(٢) — عبد الرحمن الكيالي ، المراحل التي لا تنتهي ، ص ٦٢٣ (لم ينشر)

صعبا .

هذا عدا عما ارتكبه ممثلوهم من الاخطاء الادارية بسبب تنظيم السريع وتغييرهم تبعا لاهواء السياسة الفرنسية ولانهم ايضا كانوا على الغالب منحطين من الناحية الاخلاقية ، يتصفون بالحماقة والجهل عوضا عن الكياسة والاقتدار (١) .

الى هنا ينتهي عرضنا الوجيز لتاريخ سوريا على مر العصور . عرفناها في خلاله محطا لرحال تلك الموجات السامية التي كانت تقذف بها الجزيرة العربية من حين الى آخر . ثم مسرحا للقتال بين ابنائها وجيرانهم عقبه احتلال الآريين لهذه البلاد حتى الفتح العربي الذي يعد فاتحة عهد جديد غير تاريخها وحدد قوميتها فاصبحت على توالي السنين لا تعرف غير العروبة طابعا ولسانا . ولو فرقنا بعض ابناء هذا الوطن عن بعض وجعلناهم شيعا واحزابا فان اغنية واحدة او قطعة واحدة من الشعر العربي تكفي لكي تجمع شملهم لما تحدثه في صدورهم من خلجات متشابهة في الفرح والحزن تعكسها فطرة واحدة اصيلة في النفوس .(٢).

على ان انفراط عقد الامبراطورية العباسية وبدء عصر الدويلات دشن في سوريا دورا جديدا عانت في اثنائه انواعا من الاذى اضعفتها واورثتها مشاكل عديدة ، لا تزال اثارها باقية حتى يومنا هذا ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية الاسلامية بارزة طوالة دون انقطاع . لكن الدور العثماني عكس الآية تماما فاصبحت سوريا بعد دخول العثمانيين قطرا من امبراطوريتهم التي سادها الظلم ورافقها الفوضى وعم فيها الخراب . وبقيت على مدى حكمهم تعاني الم الاستعمار حتى تخدرت واستسلمت الى سبات عميق لم تفق منه الا في اواخر القرن السابق واوائل القرن العشرين . فنشطت واخذت تطالب المستعمرين الذين اقعدوها وافقروها ماديا وادبيا بحقها من الحرية ولم تهن في نضالها الظامي الى استقلالها واستعادة مجدها التليد في ظل العروبة التي صهرتها في بوتقتها ايام عهودها اللامعة المجيدة .

ثم فوجئ العالم بالحرب العالمية الاولى فاستغلها السوريون والعرب باجمعهم كي ينالوا السيادة على بلادهم بعزة واباء فانحازوا الى معسكر الحلفاء وناضلوا بجانبهم عبثا كما ظهر في نهاية الامر لان المطامع الاستعمارية لم تكن لتحترم الوعود وتقدر

---

(١) — G. Antonius , p. 374 - 375 .

(٢) — M. Ajlani, La Constitution de la Syrie,p. 28

ما تعنيه بحريات الشعوب . وكان الاستعمار الجديد اعمق اثرا من حيث النتائج من الاستعمار القديم ، اذ تأصلت في خلاله بعض المشاكل في جسم هذا القطر العربي مما جعل قيام الحكومات الوطنية الديموقراطية امرا صعب المنال .

ولا غرو فقد عمل الفرنسيون جهدهم لايقاظ تلك المشاكل وتغذيتها الى حد ميت للروح القومية ، حتى انه يمكن للانسان ان يقول بلا تردد بان مشاكل البلاد السياسية ناتجة الى درجة بعيدة من فعل تلك السنين التي قاست سوريا في اباتها حكم المستعمرين الذين حرموها من الحرية في القول والعمل ، واورثوها بدلا من ذلك روح الفوضى والاتكال .

المشكلة الطائفية

كل من يتناول المجتمع السورى بالدرس والتحليل لا بد وان يلاحظ ما للطائفية من اثر عميق فى تركيبه وحياته . فالافراد الذين يعيشون فيه لا يرتبطون برباطه الوطنية والقومية فحسب بل هناك ما هو اعمق اثرا فى كيانهم الذاتي ، الا وهو التواشج الطائفي الذى ورثوه قويا عن الاباء والاجداد . ولا ادل على صحة هذا الامر من هذه التكتلات الطائفية التى تسود المجتمع وتجعله مفكك الاوصال بعيدا عن الانسجام . فابناء كل طائفة ، دينية كانت ام مذهبية ، يتباينون عن ابناء الطوائف الاخرى فى نظم عيشهم ، واصول شريعتهم ، هذا عدا عما يسببه هذا الانعزال من تغاير فى الشعور وتضارب فى الاهواء . ومع ان اجتياح الفكرة القومية للقطر السورى قد اضعف بعض مقومات الطائفية فى مجتمعه الا ان بقاياها لاتزال ماثلة امام اعين الناظرين . والسبب فى ذلك يعود الى تفاعل عنصرين هامين توطدت نتائجهما فى كيان هذا المجتمع على مر العصور .

احدهما هو الدين على اختلاف مذاهبه ، الذى كان يسير فى الماضي جميع حركات المرء وسكناته ويصبغها بصبغة تختلف باختلاف المذاهب والاديان . وثانيهما السياسة وما كانت توجيه من اتجاهات واعمال تتلاءم مع دوافعها واغراضها . الى هذين العنصرين تعود مشكلة الطوائف فى اساسها وتكوينها . لذلك يجدر بنا والحالة هذه ان نعود بعيدا فى ثنايا التاريخ لنرى كيف تحكم امرها وكيف اصبحت مشكلة سياسية تتطلب اسراعا فى الحل على ضوء الوعي القومي الجديد .

ان جذور هذه المشكلة تعود الى ما قبل الاسلام ، الى السياسة البيزنطية التى كانت السبب الاول فى انقسام المسيحية وتعدد مذاهبها(١) . لانه عندما استولى العرب المسلمون على هذه البلاد وجدوا ابناءها شيعا تتنازع فى ميدان العقيدة والشعور . فاقروهم على ذلك ولم يجبروهم على تغيير شيء من عقائدهم وتقاليدهم تبعا لتعاليم القرآن وسنة الرسول(٢) . فكان هذا التسامح الذى بدر منذ البداية من الفاتحين من اهم الاسباب التي سهلت نشوء التكتل الطائفي وتمركزه فى المجتمع الاسلامي خلال التاريخ . زد على ذلك ما نتج عن دخول العنصر الاسلامي الذى ثبت دعائم

---

(١) – H. Lammens, La Syrie : Précis Histotique, V. I, P. 22 - 23

(٢) – جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ – ص ٩٦ .

الدولة على اسس دينية معتبراً حق المواطنة من حظ المسلمين دون سواهم من الناس . ولئن كان لهذا الامر بعض الشذوذ كما ظهر في بعض الفترات من العصر الاموي مثلا الا ان النظرة الشرعية الحقيقية لم تتغير عن المفهوم الذي استقته عن القرآن او الحديث . وظل اهل الكتاب من نصارى ويهود يدعون " اهل الذمة " ويدفعون الجزية لقاء الحفظ على حريتهم وحياتهم واموالهم . فكان محتما والحالة هذه ان تنشأ ضمن الدولة الاسلامية مجتمعات عديدة يختلف بعضها عن البعض الاخر باختلاف نزعاتها وشرائعها لا يجمعها على ارض واحدة سوى سلطان الاسلام الذي اطلق لها حرية العيش وعاملها بالتسامح في اغلب الاحيان .

ولننظر الان كيف يمكننا ان ندعم هذه الاراء من الناحيتين ، النظرية والعملية . ولكي نبحث في الناحية الاولى يجب علينا ان نرجع الى مصادر ثلاث كان لها اكبر الاثر في توجيه سياسة الحكام المسلمين تجاه الذين عاهدوهم من اهل الذمة . واول هذه المصادر هو القرآن الكريم ، فقد وردت فيه ايات عديدة تتعلق بمعاملة المسلمين للنصارى واليهود وكانت هذه الايات تختلف من حيث تسامحها في بعض الاحيان وشدتها في الاحيان الاخرى . فنحن نقرأ مثلا في بعض السور ما يجعل اهل الكتاب متساوين مع المسلمين . " ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (المائدة ، ٧٣) . ونقرأ في سور اخرى نصوصا تشدد على النصارى وترتاب في سلوكهم وتفرض عليهم فروضا مادية ، واولى هذه الايات التي تميزت بنظرة القرآن السلبية هذه : " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " (التوبة ، ٣٠) . على ان تتبع التاريخ والتدقيق في ظروف نزول الايات واسباب نزولها يبرر الى حد ما اختلاف نظر القرآن الى اهل الكتاب ، ونظرته الى الديانات الكتابية بذاتها من ناحية ثانية لا يدع مجالا للريب في وحدة موقف الاسلام وموقف محمد . والحقيقة تبرز بوضوح في قول الاستاذ هيكل من ان الايات " التي نزلت في سورة التوبة وتحدثت عن اهل الكتاب لم تتحدث عنهم في ايمانهم في بالمسيح بن مريم ، وانما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي اكلهم اموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة ، والاسلام يرى ذلك خروجا من اهل الكتاب على دين عيسى (١) . فلا

---

(١) — هيكل ، حياة محمد ، ص ٤٩٦

مجال بعد هذا للشك فى نظرة الاسلام المملوءة بالاحترام والتسامح لاهل الذمة ، ولنا فى الاية التالية خير مؤيد لصحة هذا الراى الذى دعه الرسول والخلفاء فى الاقوال والافعال ، " لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " (البقرة ، ٢٥٧) .

اما المصدران الاخران اللذان رجع اليهما الفقهاء ورجال الشرع فى تحديد موقف المسلمين من الذميين على توالي العصور ، فهما الحديث النبوى والعهود التى صدرت عن النبي او عن بعض الخلفاء الراشدين لاهل الكتاب والتى كانت تحدد حقوق اهل الذمة وواجباتهم تجاه الدولة الاسلامية . وكانت اغلبها تتضمن روح التسامح وتطلق الحرية الكاملة للذميين شرط ان يفوا بدورهم بما عوهدوا عليه وان يحترموا شعائر الاسلام الذى كانوا يعيشون فى كنفه وحمايته . ولعل خير ما يمكننا الاستشهاد به فى هذا الصدد هو قول الرسول : " من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه " (١) . وهذه ايضا صورة عن بعض العهود التى كتبها وقد كتبت ليوحنا بن رؤبة . " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبه واهل ايلة . سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر او بحر " . وختم الكتاب بقوله : " فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم "(٢) ولا تختلف الكتب والعهود التى كتبها النبي الى اهل اذرع والجرباء ومقنى عن عهد ايلة . فقد امنهم وجعلهم فى ذمة الله وذمة رسوله وغفر لهم ذنوبهم واجارهم من الظلم والعدوان لقاء جزية يدفعونها من انمارهم واخشابهم ونخيلهم (٣) .

يتبين لنا مما سبق بان القرآن الكريم والحديث الشريف والعهود النبوية جميعها تسلك نفس السبيل فى النظر الى معاملة الذميين ولعل ما تجده على خلاف ذلك

---

(١) — كتاب الخراج ، القاضى ابو يوسف ، ص ٧١
(٢) — ابن هشام ، كتاب سيرة رسول الله ، ص ٩٠٢ و البلاذرى ، كتاب فتوح البلدان ، ص ٥٩ .
(٣) — ابن هشام ، ص : ٩٠٢ و البلاذرى ، ص ٥٩ .

يرجع اما لظروف واسباب خاصة كما هو الامر في القران ، او لدس المتغرضين وافتراء الكاذبين الكاذبين كما هي الحالة في بعض الاحاديث وبعض العهود . نعم ان الاسلام لم ينظر الى اهل الكتاب نظرة مساواة في الحقوق والواجبات ، لكنه في الوقت نفسه بادرهم بالتسامح الى اقصى الحدود الممكنة في تلك العصور ، ويجب الا يكون في هذه النظرة الاسلامية ما يدعونا لان نتهم المسلمين بالصلابة والتعصب كما يفعل بعض المستشرقين ، اذ ليس من المنتظر كما يقول الاستاذ فارس الخوري : " ان يجعل المسلمون لغير المسلمين في بلاد الاسلام نفس الحقوق التي للمسلمين في كل شيء . فهذه الدول الحديثة في عصر الحضارة الباهر الذي نحن فيه لا تمنح الاجانب النازلين في بلادها حق المساواة مع ابناء البلاد ، فليس لهم حق التوظف ولا حق الانتخاب ولا حق احتراف بعض الحرف المخصوصة ولا حق التنقل الحر ولا حق التمتع المطلق بحماية القوانين واستثمار الحرية مثل الرعايا الاتليين الحليين . وانت تعلم ان اختلاف الدين في دولة الاسلام هو مثل اختلاف الجنسية في هذا العصر . والاسلام جنسية عامة لكل المسلمين في دار الاسلام وقد بنيت الدعوة الاسلامية على وحدة الدولة كما بنيت على وحدانية الله (١) " .

لهذا يجب ان لا ناخذ المساواة بعين الاعتبار حينما ناتي الى الناحية العملية لنرى كيف كانت معاملة الخلفاء او الدول الاسلامية لابناء الاديان الاخرى . بل يجب ان يظل مقياسنا التسامح الذي بشر به القرآن والنبي . فنحكم على كل عنصر بمقدار ما حققه من ذلك التسامح الذي اوصى بالتقيد به كتاب الله ورسوله الامين .

كان عهد الخلفاء الراشدين اقرب شيء الى سياسة النبي في رعاية اهل الذمة الذمة ، فكانوا " اذا انفذوا جيشا للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيرا ولا سيما النصارى ورهبانهم ، واذا جاء اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم ، فقد اوصى الخليفة ابو بكر سلمان احد الصحابة قال : " يا سلمان انها ستكون فتوح ... فلا تقتلن احدا من ذمة الله فيطلبك الله بذمته بذمته ، فيكبك الله على وجهك في النار " (٢) . ولم تختلف سياسة عمر بن الخطاب

---

(١) — ماخوذ هذا القول عن المقدمة التي كتبها الاستاذ فارس الخوري لكتاب "الشرع الدولي في الاسلام" نجيب الارمنازي .

(٢) — ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ، ج ٣ — ص ١٣٧ .

فى هذا الشأن عن سياسة ابي بكر ، ومن مظاهر الرعاية عمر للنصارى واحترامه لعهدهم انه ذهب بنفسه لبيت المقدس ليتسلمها من بطريقها كما رغب وليكتب له العهد بنفسه ، فاباح عمر بذلك النص التاريخي لنصارى القدس حرية الاقامة والدين وحفظ لهم كنائسهم من الهدم والانتقاض . ولما ادركت عمر الصلاة وهو فى كنيسة القيامة خرج وصلى على درجة لا عند بابالكنيسة ، ولما استغرب البطريق صوفرتيوس فعلته قال له عمر : " اتدرى لم لم اصلّى داخل الكنيسة ، قال لا ... فقال عمر ، لو صليت داخل الكنيسة لكانت تغلت منك وتخرج عن يدك ويأخذها المسلمون منك بعدى ويقولون هنا صلى عمر . ولكن آتنى بقرطاس فاكتب لك سجلا فكتب له عمر سجلا على ان لا يصلي احد من المسلمين على الدرجة الا واحدا واحدا ، ولا تجمع فيها صلاة ولا يؤذن عليها ودفع السجل الى البطريق (١) . وهنالك كثير من امثال هذه القصص تروى عن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين الذين عاملوا اهل الذمة بمنتهى التسامح والاحترام . وهذه شهادة نصرانية تشهد بعدل الراشدين وتسامحهم ، وهي للبطريق "مروميشوياب " المعاصر للخليفة عثمان بن عفان يذكر فيها . " ان العرب الذين اعطاهم الله السلطنة على العالم فى هذا الوقت يسلكون معنا السلوك المعروف كما تعلمون ، وهم ليسوا ضد الديانة النصرانية ولكنهم يمتدحون ايماننا ويحترمون رهباننا وقسيسينا ويرعون كنائسنا واديرتنا ويمنحوننا الفوائد والعطايا "(٢). واذا ما جئنا ندرس علاقة الامويين بالنصارى نجد ظاهرتين اساسيتين : الظاهرة الاولى ان النصارى كانوا يعيشون فى بعض الادوار فى حياة تسامح ورخاء وسيادة يتمتعون بحرية الدين المطلقة ويحتلون المراكز السياسية الرفيعة ويساهمون الى حد كبير فى سياسة الدولة الاموية كعنصر لهام له اهميته فى مجرى الحياة العامة . والظاهرة الثانية انه كان يضيق عليهم ويحد من سلطتهم فيخضعون لسلسلة من التقييدات التى تتعلق بكل نواحي حياتهم ، الا ان الظاهرة الاولى كانت اعم واشمل ، (٣) . وقد برهنت الوقائع على ان نصارى الشام كانوا اكبر عون للدولة الاموية اعتمدوهم ليس فى التجارة فحسب وانما فى الجيش وفى بناء الاسطول . على ان هذه المكانة التى بلغها اهل الذمة فى بعض ادوار العصر الاموى لا تلبث ان تزول تمشيا مع اهواء بعض الخلفاء والامراء . مثال ذلك ما امر به الخليفة عمر بن عبد العزيز بان يكون لهم لباس خاص وان يمنعوا من التشبه

---

(١) — S.A. Tritton, The Caliphs and their non-moslem subjects . p. I38 and W.A. Shadd, Islam and Oriental Churchs p.II0

(٢) — عبد الله وخلص ، المسلمون والنصارى ، ص ٨ — ٩ . راجع ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لسعيد بن بطريق ج ٢ ص ١٧٠

(٣) — A.S. Tritton , p. II9 - 36 .

بالمسلمين لكى لا يندسوا بين صفوفهم فيتجسسوا عليهم ويستطلعوا اخبارهم فينقلوها الى اعدائهم (١). وخلاصة القول فان اهل الكتاب عاشوا فى القرن الاول الهجرى بوجه الاجمال حياة حرية وتسامح . ويقول ارنولد ان الاضطهاد الذى لاقوه من حين لاخر كان سببه سوء استعمالهم الحرية الممنوحة لهم وعدم تقيد بعض الموظفين منهم بواجباتهم نحو الدولة ، ثم وجود بعض الخلفاء الذين نالوا منهم طبقا لما توحيه لهم اهواؤهم الجامحة ورغباتهم الخاصة (٢). وتجدر الاشارة فى هذا الصدد الى ان العصر الاموى قد امتاز بطابع القومية العربية وكان العرب يحتلون فيه المركز الاول حتى ولو كانوا من غير المسلمين (٣) . لكن هذه الحالة قد تبدلت نوعا ما فى العصر العباسي ولم يعد اهل الذمة يتمتعون بنفس الحظ من الحرية التي عرفوها فى عهد الراشدين والامويين ، ذلك لان الصبغة الدينية كانت مستحكمة ومسيطرة ابان ذلك الدور بسبب سيطرة العناصر الاسلامية التي كانت غريبة عن العروبة من حيث الجنس . ومع هذا كله فقد تمتع النصارى فى الدور العباسي الاول خاصة وفى بعض الفترات من الادوار الاخرى بعطف الخلفاء والولاة وشاركوا المسلمين فى ادارة امور البلاد وائتمنوا على المصالح . ولو استثنينا بعض ما جاء به الخليفة المتوكل الذى كان اشد الخلفاء العباسيين لا على النصارى فحسب بل على المسلمين ايضا ، لوجدنا ان روح التسامح كانت سائدة فى ذلك العصر وان اهل الذمة كانوا يتمتعون باكبر قسط من الحرية الممكنة فى تلك الاثناء . هذا مع الملاحظة بان الضغط والاضطهاد الذى حصل فى بعض الفترات كان يرجع الى هوى الخلفاء وليس الى قوانين موضوعة ثابتة (٤) . ولنا فى وصية القاضي ابي يوسف الى الخليفة هارون الرشيد خير حجة . " ينبغى يا امير المؤمنين ايدك الله ان تتقدم فى الرفق باهل الذمة نبيك وابن عمك محمد . والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من اموالهم الا بحق يجب عليهم " (٥) .

---

(١)- الخراج القاضي ابو يوسف ، ص ١٥٣ ، و A.S. Tritton , p. II5,II6 .

(٢)- T. W. Arnold, " The Preaching of Islam " p. 78

(٣)- زيدان ، ج ٤ - ص ١٠٦ و ١١٨

(٤)- T.W. Arnold, p. 420,.

(٥)- القاضي ابو يوسف ، ص ١٤٩ .

والذى يدرس حالة الذميين فى العهد الفاطمي لايجدها تختلف عما كانت عليه فى العصر العباسي . فباستثناء الحاكم بامر الله الذى انزل بالنصارى ضروب الاضطهاد ، اظهر الفاطميون تسامحا واسعا تجاه اهل الكتاب حتى ان بعضهم تمكن من الوصول الى اعلى مراتب الدولة ونال من العز شاوا كبيرا (١)

ولم ينصرف المسلمون عن تسامحهم حتى فى اشد حالات النزاع بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ابان الحروب الصليبية . فقد كان بعض نصارى الشرق فى زمن صلاح الدين الايوبي يشغلون المراكز والمناصب الادارية ويتمتعون بكل عطف وحماية (٢) . وقبل ان ننتقل الى الحروب الصليبية لنرى ما تركته من اثر سيء فى حياة المجتمع السورى يمكننا ان نقول على وجه الاجمال بان التسامح كان الصفة البارزة التي درج عليها العرب المسلمون فى سياستهم مع اهل الكتاب . هذا دون ان ندعى بانه كان تسامحا مطلقا ، بل كان دون ريب فى معناه الضيق وهو الترخيص للديانة الاخرى بان تمارس طقوسها وتقوم بعاداتها التقليدية الى جانب ديانة مسيطرة حاكمة . ويقول الاستاذ متز ان ما يميز المملكة الاسلامية عن اوربا النصرانية فى القرون الوسطى ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الاديان الاخرى غير الاسلام . وليست الثانية كذلك . وان الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة وكأنها لا تكون جزءا من المملكة معتمدة فى ذلك على العهود وما اكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة ان يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين . فاعاد ذلك على خلق جو من التسامح لم تعرفه اوربا القرون الوسطى . كان اليهودى او النصراني حرا ان يدين بدينه ، ولكنه ان اسلم ثم ارتد عوقب بالقتل . وفى المملكة البيزانطية كان عقاب من اسلم القتل (٣) . فإن فكرة التعصب الديني التي اعتاد كثير من كتاب الغرب اطلاقها على المسلمين فكرة واهية لا تؤيدها الوقائع ولا تقرها تعاليم المسلم . فالاسلام لا يثبت فى نفوس متبعيه الاحقاد والتعصب على المخالفين الذين لا يدينون بدينهم . ومن الخطأ الفاضح ان يعتقد ان الضيق والشدة اللذين اخذ بهما النصارى فى بعض الفترات من العصر العباسي ترجع الى الحقد او العداء الديني بين النصارى والمسلمين .

---

(١) — احمد امين ، ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٨٤ — ٨٦

(٢) — C.H. Becker , " Christianity and Islam , p. 31 .

(٣) — ادم ميتز — الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع هجرى — ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

وعلى كل حال فانه لا يمكن للمرء ان يقارن فعل العرب المسلمين مع رعاياهم اصحاب الاديان الاخرى بما كان يفعله الغربيون مع الاقليات الدينية التى كانت تعيش بين ظهرانيهم وأكثر المنشور الذى اصدره البابا اينوسنت الثالث ضد كل من يخالف العقيدة الكاثوليكية لا نجد له شبيها بما اصدره بعض الخلفاء ضد النصارى قال : " لايجوز ان يترك لاولاد الجاحدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منّ واحسان (١) . ولو كان يتسع لنا المجال لاتينا على ذكر محاكم التفتيش وحادثة سانت بارتيليمي المشهورة وغيرها من الامور التى تحطينا برهانا ساطعا على التعصب الاعمى الذى عم العالم الغربي قرونا طويلة . فلعل ذلك يظهر للملأ بان التدخل الاجنبي بحجة حماية الاقليات لا يصدر عن روح انسانية محبة للتسامح بل عن غايات ومآرب اخرى . هذا التدخل الذى كان السبب الاكبر فى خلق مشكلة الطائفية التى تاصلت فى حياة ابناء سوريا وتوطدت دعائمها فى هذه الربوع على مدى التاريخ .

يرجع اصول التدخل الغربي فى شؤون هذه البلاد الى الحروب الصليبية التى كان من اضرارها ايقاد جذوة التعصب الديني بين المسلمين والمسيحيين (٢) . هذا فضلا عما اشاعوه من عوامل الانقسام بين الطوائف المسيحية التي كان بعضها يرتبط بالكنيسة الشرقية والبعض الاخر مستقلا فى شعائره وعقائده كاليعاقبة مثلا . ولاغرابة فى ذلك فقد كان من غايات البابا التى بشر بتلك الحروب ان تمتد سلطة الكنيسة الكاثوليكية الغربية على مسيحيي الشرق كافة (٣) .

ثم انسحب الصليبيون من ربوع هذه البلاد ، فزال بزوالهم تاثير الغرب المباشر وتدخله فى شؤون هذا القطر الى حين . غير ان ذلك لا يعني ان الشرق العربي قد انقطعت صلاته انقطاعا تاما عن الغرب بل ظلت العلاقات التجارية قائمة بين الطرفين * تزداد كلما طال عليها العهد - تماسكا وارتباطا ، حتى اذا جاء العهد العثماني وجدنا ان بعض الدول الغربية قد تمكنت من الحصول على الامتيازات المختلفة لرعاياها الذين كان لهم صلة تجارية اوغيرها فى هذه الديار (٤) : ومما لا شك فيه ان هذه

---

(١) - محمد عبده ، الاسلام والنصرانية ، ص ٣٦ .

(٢) - كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ص ١٣١

(٣) - Stevenson , p. 8

(٤) - Pierre Ghaleb: "Protectorat Religieux de la France en Orient" - 50 - 82

الامتيازات قد سهلت قدوم الارساليات الدينية من كبوشيين ويسوعيين وغيرهم ، ومكنتهم من بذر روح الانشقاق بين الطوائف المسيحية فى سوريا (١).

ولم يكد القرن التاسع عشر يأتي على نصفه حتى اصبحت كل طائفة منقسمة الى قسمين ، احدهما بقي على عقائده القديمة وشعائره الموروثة ، والثاني الحق بروما وغدا كاثوليكيا يخضع للبابا ويأتمر بامره . وكان بين الارساليات الدينية التي حطت رحالها فى هذه الربوع ارساليات اميركية جاءت هذه البلاد فى القرن التاسع عشر وافتتح بعضها معاهد للتعليم . والطائفة البروتستانتية الموجودة حاليا فى سوريا تعود بمنشئها الى تلك الارساليات التي بشرت تعاليمها ما وسعها الامر لكي تكسب اتباعا لذاك المذهب وتنشئ لنفسها نفوذا بين سكان هذه الاصقاع . الى جانب هذه الطوائف المسيحية العربية توجد طوائف مسيحية اخرى لا تمت بصلة الى قومية ابناء سوريا . فالارمن والاشوريون الذين هاجروا الى سوريا اثر الحرب العالمية الاولى يشكلون طوائف مسيحية خاصة عرفت نفس الانقسام الذى طرأ على طوائف البلاد الوطنية تحت تاثير المبشرين الكاثوليك .

هذه نظرة موجزة تبين لنا الاسباب فى تعدد الطوائف المسيحية فى سوريا . على ان هذا الامر لا يختص باتباع الدين المسيحي فقط بل ينطبق ايضا على اتباع الديانة الاسلامية . فالمسلمون فى هذه البلاد لا يكونون طائفة واحدة موحدة فى المشاعر والعادات لكنهم ينقسمون الى طوائف عدة نشأت تحت تاثير عوامل مختلفة ظهرت خلال التاريخ الاسلامي (٢) . فهناك الطائفة السنية التى تضم اغلبية سكان البلاد ، ثم الطوائف الشيعية المتعددة التي اتخذت لنفسها الجبال معقلا يحصنها من استبداد السنيين الحاكمين الذين اضطهدوها بعرارة ايام العثمانيين (٣) . بقي علينا ان نذكر شيئا عن الطائفة اليهودية لكى تصبح صورة المجتمع السورى من الناحية الطائفية بارزة بوضوح لا يشوبها نقصان . ان ابناء هذه الطائفة ليسوا جميعهم من سكان هذه البلاد الاصليين فاغلبهم يرجعون باصلهم الى اليهود الذين نزحوا عن اوروبا الوسطى واسبانيا فى القرن السادس عشر . ولقد دخلوا سوريا فى العهد العثماني حيث استقروا على السواحل

---

(١) ـ هذه الارساليات نشأت على اثر فشل الحروب الصليبية فى انتزاع الاراضي المقدسة من ايدى المسلمين ، ففشل السيف صرف النصارى الى الكتاب والتبشير .

(٢) F. J. Bliss , The religions of Modern Syria and Palestine, p.8-11

(٣) ـ كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ١٣١

وفي المدن الكبرى كحلب ودمشق وكان ذلك نتيجة لاعتراف العثمانيين بكيانهم الخاص(١)

على ضوء ما تقدم اصبح بوسعنا ان نكون فكرة بسيطة عن معنى الاحصاء التالي لسكان سورية (٢) .

سنيون	١٠٩٧١٥٠٥٣	روم كاثوليك	١٦٥٢٤٧
شيعيون	١٢٥٧٤٢	موارنة	١٣٥٣٤٩
علويون	٣٢٥٥٣١١	لاتين	٥٥٩٩٦
د روز	٨٧٥١٨٤	ارمن قديم	١٠١٥٧٤٧
اسماعيليون	٢٨٥٥٢٧	ارمن كاثوليك	١٦٥٧٩٠
يزيديون	٢٥٧٨٨	بروتستانت	١١٥١٨٧
روم ارثوذكس	١٣٦٥٩٥٧	نسطوريون	٩٥١٧٦
سريان قديم	٤٥٥١٣٥	كلدانيون	٤٥٧١٩
موسويون	٢٩٥٧٧٠		

ان بعض هذه الطوائف المعددة اعلاه ، ظهرت على مسرح سوريا ايام العثمانيين اثر التدخلات الاجنبية في شؤون الامبراطورية العثمانية ، والبعض الاخر الذي يرجع بمنشئه الى عهد اقدم كان موجودا حينما احتل السلطان سليم الاول هذا القطر . ولقد بينا ذلك بوضوح في استعراضنا كيفية نشوء تلك الطوائف المختلفة .

المشكلة الطائفية كما نعهدها في العصر الحديث وعلى الشكل الحاضر لم تظهر الا في غضون العهد العثماني ، وذلك لسببين ، اولهما السياسة التي اتبعها العثمانية تجاه الاقليات غير المسلمة وثانيهما الدسائس الاجنبية التي كانت تعمل ما وسعها الامر لايقاد جذوة التعصب الديني وبث روح الحقد والضغينة بين السكان، لهذا يجب علينا ان نلقي نظرة عجلى على ذلك العهد لنرى كيف تطورت مشكلة الطوائف في ابانه ثم كيف استحالت الى هذا الشكل الذي اصبحت عليه ايام الانتداب .

اقتبست الدولة العثمانية عمن سبقها ذلك التمييز المعهود بين رعاياها فكان القانون العام لا يطبق الا على المسلمين لان الدولة كانت مؤسسة منهم ولاجلهم .

---

(١) - E.Rabbath" Revue Internationale de Sociologie " p. 456.

(٢) - Recueil de statistiques de la Syrie et du Liban, I942-45

اما غير المسلمين الذين كانوا مكتلين حسب طوائفهم وتحت سلطة رؤسائهم الروحيين، فان الدولة العثمانية قد اعترفت لهم بنفس الحقوق التي عرفوها كاهل ذمة فيما مضى من العهود (١) . وعلى هذا الاساس اصبحت الطوائف غير المسلمة تشكل دويلات صغيرة ضمن الدولة الكبرى صاحبة السلطان ، وكل منها يراسها زعيمها الديني الذي كان يعد مسؤولا تجاه ارباب السلطة وذوي الشان . فتمكن ابناء الطوائف غير المسلمة بواسطة هذه الحرية التي تمتعوا بها بشان كيانهم الخاص من ان يعيشوا بجو من الامان والاستقرار مدة طويلة من الزمن . نعم لقد كان هناك بعض فترات لاقوا فيها شيئا من الاضطهاد كعهد السلطان سليم الاول ومراد الثالث الا انهم على الغالب عاشوا في جو مسوده الحرية والاطمئنان(٢). ولابد لنا في هذا الصدد من ان ننظر في درجة الحرية التي كانت تتمتع بها الطوائف غير المسلمة وفي صلاحيات رؤسائها الروحية والزمنية .

ان الامتيازات التي اعطتها الدولة العثمانية للطوائف غير المسلمة كانت بالاصل تختلف من طائفة الى اخرى . واوسع هذه الامتيازات كانت تلك التي تختص ببطريرك الروم الارثوذكس الذي كان عدد اتباعه يفوق غيره من رؤساء الطوائف الروحية . فانه كان يمثل بحكم امتيازاته وحقوقه التي نالها من السلطان محمد الفاتح دولة ضمن دولة ثانية. وفي كلام احد الوزراء العثمانيين كان بطريرك الروم الارثوذكس مسؤولا عن الشرف والمال والحرية الشخصية وحرية العقيدة المختصة باتباع الكنيسة الشرقية كافة ، وكان يحق له ان ينفي ويسجن ويفرض الضرائب ويشرف على امور الدراسة وغير ذلك من الاشياء التي تعد من اختصاص القانون الدولي والحياة السياسية العامة . وعلاوة على ذلك كانت الحكومة السلطانية تمد له يد المساعدة في تنفيذ كل ما يصدره من اوامر تتعلق بشؤون رعيته(٣) . ولم يكن حظ الملل الاخرى بالحرية في امورهم باقل من حظ ابناء الكنيسة الشرقية .

ان هذا النظام القانوني الذي كان سائدا في الامبراطورية العثمانية يجد اكبر برهان على روح التسامح الكبيرة التي اظهرها العثمانيون وسببا مباشرا لخلق تلك

---

(١) - E. Rabbath, Revue ... p. 47I

(٢) - H. Lahham, Le Problème Minoritaire en Syrie , p.63

(٣) - E.D. Engelhardt: La Turquie et le Tanzimat" T.I. p.I35

الفوارق العميقة بين سكان البلاد ويؤكد "فالنتين دو سان بوان" صحة هذا الرأى فتقول : " ان هذه النظم الخاصة التى اعترف بها العثمانيون وتلك السلطة التي منحوها لرؤساء الطوائف الدينية تعد من اهم الاسباب التي ادت الى خلق روح التعصب والانعزال بين ابناء القطر الواحد (١) .

هذه الحال التى كانت سائدة فى العهود الاولى من الحكم العثماني طرأ عليها تبدل هام خلال القرن التاسع عشر ، وذلك بفعل النفوذ الاجنبي الذى اخذ يتسع يوما بعد يوم بسبب الضعف والفوضى اللذين تميزت بهما الامبراطورية العثمانية فى ذلك القرن . فكان محتما على الدولة العلية امام هذا التيار الغربي الجديد ، ان تنهج نهجا جديدا يتلاءم مع حاجات العصر ان كانت تبغي لنفسها السلام والدوام . لذلك قرر اولو الامر ان يصلحوا نظم الامبراطورية بشكل يتفق والمدنية الحديثة وان يساووا بين رعاياهم دون تفريق او تمييز بين العناصر والاديان (٢).

بيد ان الجهود التى بذلت فى هذا السبيل لم تثمر قط . بل زادت مشكلة الطوائف تعقدا وازداد الحقد والبغض بين الطوائف المختلفة على مدى الايام . والسبب فى ذلك يرجع الى ان سواد الشعب كان رجعيا فى نظرته الى الاصلاح الجديد . فلم يبد اية معونة فى هذا الاتجاه ولم يتآزر مع رجال الدولة الذين ابدى بعضهم رغبة اكيدة فى الاصلاح (٣).

وكذلك كان للدسائس الاجنبية يد طولى فى توسيع الشقة بين النصارى والمسلمين مما ادى الى بقاء الطائفية كعنصر هدام فى حياة المجتمع السورى يدفعه الى الوراء ويمنعه من التقدم والازدهار . فالقوانين المختلفة التي اصدرتها الدولة العلية فى مراحل عديدة بغية تنظيم جديد يقوم على اسس حديثة لم تأت بالنتائج المرجوة وان كانت قد بدلت وضع ابناء الطوائف قانونيا اصبحوا بعد تطبيقها مساوين لغيرهم فى الحقوق والواجبات (٤) . ولقد نشأت صعوبات جمة من تطبيق تلك القوانين المنقولة عن القوانين الفرنسية ، فلقد حاذر غير المسلمين مساواتهم بالمسلمين لئلا يفقدوا جانبا مهما

---

(١) V. de Saint Point : La Vérité sur la Syrie , p. II2.

(٢) E.D. Engelhardt, T.I., p. 36.

(٣) E.D. Engelhardt, T.I., p. 254.

(٤) E. Rabbath, L'Evolution politique de la Syrie sous Mandat. p. 34 .

كانوا يتمتعون به من حقوق منذ عهد الفاتح ، ومنها اعفاؤهم من الخدمة العسكرية وامتناع كنائسهم بحق الاشتراع لطوائفهم ، واطلاق حريتهم لتنظيم شؤونهم المدنية . فكثر الاعتراض من كل جانب وكان النصارى بعد عهد الاصلاحات يتمتعون بكل ما فيها من مرافق ويسعدون عما فيها من متاعب لان الدول عاونتهم على مطالبهم وقالت للدولة انت وشأنك مع المسلمين (١) . قال ريشارد وود " اما اعتراض المعترض بان المساواة بين الطوائف غير كاملة ما دام النصارى لم يشتركوا في الجندية العثمانية فجوابنا ان الذنب في ذلك على النصارى انفسهم لا على الباب العالي ، اذ النصارى مع حرصهم على نيل حقوقهم لم يقبلوا ان يدخلوا تحت ما يقابلها من الواجبات (٢).

وخلاصة القول فان الاصلاحات التي قامت بها الدولة العلية لم تحدث الاثر المرغوب بل على عكس ذلك فقد خرج نظام الطوائف منها مثبتا محكم التدبير (٣). وهكذا نجد بانه على الرغم من حسن النية التي ابداها رجال الدولة في القضاء على النظام الطائفي ضمن الامبراطورية ، فان المقاومة التي جاءت من رجال الدين على اختلاف مذاهبهم جعلت تحقيق هذه الغاية امرا صعب المنال . غير انه مع ذلك يجب ان لا يغيب عن فكر المرء ما طرأ من تغيير جوهري على قانون الامبراطورية العام . فان الاقليات التي كانت تعيش في السابق وتتمتع بحريتها بفضل التسامح اصبحت بعد عهود الاصلاح تتمتع بحق شرعي في المساواة مع الرعايا العثمانيين كافة . " ان جميع الرعايا العثمانيين ، مهما كان مذهبهم وعنصرهم ، اصبحوا دون استثناء متساوين امام القانون " (٤) . ولقد جاء الدستور الصادر في سنة ١٨٧٦ مقرا لهذا المبدأ بشكل واضح محدد . وكذلك الدستور الصادر سنة ١٩٠٨ عقب ثورة الاتحاديين اقر هذا المبدأ ووضع جميع ابناء الامم المختلفة على صعيد واحد وساواهم مع المسلمين امام القانون (٩) .

---

(١) – كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ص ٣١٢

(٢) – كرد علي = ، = ٣١٢

(٣) – E.D. Engelhardt, M.T.2, p.300

(٤) – E. Rabbath, Revue... p. 481

(٥) – E. Rabbath, Revue... p. 480.

ان جميع هذه المسائل التي كان بعضها يراد بها القضاء التام على الطائفية في مظهريها السياسي والاجتماعي لم تحقق للبلاد هدفها المنشود ، وذلك لامر هام وهو ان دستور الامبراطورية ظل محافظا على بعض المؤسسات التشريعية والادارية والقضائية التي تمت باصلها الى الدين الاسلامي (١) . فكان من الصعب والحالة هذه ان يزول نظام الطوائف عند اتباع الديانات الاخرى وان تذوب الاقليات الدينية ضمن المجموع . لهذا بقيت الطوائف غير المسلمة محافظة على بعض حقوقها التقليدية خاصة بما يتعلق بالقوانين الشخصية . لكن طبيعة هذه الحقوق تغيرت عن مفهومها القديم واصبحت تعد امتيازات قانونية يعترف بها الدستور بعد ان كانت امتيازات سياسية تعطى لاهل الذمة مقابل ما كان يتمتع به المسلمون (٢) . وكان بقاء بعض الامتيازات ضرورية في الحالة التي لا يتفق بها القانون العام مع حاجات ابناء الطوائف غير الاسلامية . لهذا بقي تشريع الطوائف المختلفة معمولا به في كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية ، لان القانون العثماني لم يعترف الا بالشريعة الاسلامية في هذا الصدد وبالنسبة للمسلمين . اما فيما يتعلق بصلاحيات زعماء الطوائف المالية وباعفاء ابناء الطوائف من الجندية فان هذه الامتيازات قد زالت تماما ولم يعد يعمل بها (٣) .

ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت مشكلة الطوائف في سوريا (او في الدولة العثمانية) لا تزال باقية تتطلب الحل ، ولو ان بعض مظاهرها قد زالت كنتيجة للاصلاحات الدستورية التي قام بها العثمانيون . ويمكننا ان نقول بان هذه المشكلة قد سهلت من ناحية وتعقدت من ناحية اخرى وذلك بسبب السياسة الاجنبية التي عملت جهدها في التفريق بين السكان وخلق جو من العداوة والبغضاء بينهم مما ادى الى تعقيد هذه المشكلة وجعلها واسطة لتثبيت اقدام الغربيين في هذه الربوع . ونحن لا ننكر ما كان للسياسة العثمانية من يد خفية في عملية التفريق وبث روح الضغينة ، غير اننا نزعم بان ذلك كله كان نتيجة لتدخل الايادي الاجنبية في شؤون هذه البلاد . وعلى وجه الاجمال فان مشكلة الطوائف في سوريا لم تجد حلا ناجعا ابان العهد العثماني لسببين :

---

(١) – E. Rabbath, Revue ... p. 48I

(٢) – E. Rabbath, " p. 48I

(٣) Hatti-Houmayoun, du I8 fév. I856, Art. I7 et I9, voir Engelhardt T.I. p. 268.

اولا - لان العثمانيين لم يأتوا بقانون مدني ينطبق على جميع الرعية ، الامر الذى ادى الى تنوع الحقوق وتنوع الواجبات . فالدولة كانت ابدا تفرق بين نظامين ، نظام طبيعي يخضع له جميع العثمانيين المسلمين ، ونظام خاص ينطبق على غير المسلمين . والمشكلة الاساسية كانت/تدور حول طريقة التوفيق بين الشريعة الاسلامية المقدسة والقوانين الاصلاحية المستقاة من ينابيع الغرب (١) .

ثانيا - لان الاتراك انفسهم كانوا يتبعون سياسة التفرقة بين السكان ، وكم مرة كان عملاؤهم سببا فى بعث الفتن وايقاظ جذوة التعصب الديني . لكن العامل الاكبر الذى جعلهم يسلكون هذا السبيل كان تدخل الغرب باسم حماية الاقليات ، ذلك التدخل - كما اسلفنا مرارا - الذى كان له اعمق الاثر فى تمكين الروح الطائفية وخلق جو من التنافر والتحاسد والحذر بين اهالي البلاد . فالعوامل الخارجية قد لعبت دورها ايضا فى تثبيت الحواجز الروحية والمادية بين ابناء هذا القطر حتى اصبحت الطائفية - المستغلة - مشكلة اجتماعية معقدة تهدد كيان القطر السورى ووسيلة سهلة يتذرع بها المستعمرون للقضاء على حريته واستقلاله . ولقد تم ذلك بواسطة المدارس الاجنبية والارساليات التبشيرية وكتابة بعض المتفرضين الذين علوا جهدهم على اظهار سوريا بمظهر البلد الذى على مختلف الاديان ومختلف الشعوب المتطاحنة المتحاسدة . هذا فضلا عن الدسائس الاجنبية التي كان يحيكها ممثلو الدول الغربية بين الاهالي بغية التفرقة والانشقاق .

ان هذه العوامل الخارجية المتعددة تظهر بوضوح وبشكل محسوس ما قصدناه من كلمة " التدخل الاجنبي " التي اتينا على ذكرها فى عدة مناسبات فى هذا الفصل . فالمدارس الاجنبية كانت على الدوام بؤرة لنفث سموم الحقد وشحن الضغائن فى نفوس الشبيبة بمختلف الطوائف ، وكذلك كان شأن الارساليات الدينية التي لم يقتصر عملها على نشر التعاليم المسيحية والسعي الى اكتساب النصارى التابعين للكنيسة الشرقية الى الكنيسة الكاثوليكية بل تعدى ذلك الى العمل على تسهيل مهمة المستعمرين والقضاء على الروح القومية الناشئة ، معتمدين فى هذا الامر على معونة اخوانهم فى الدين من اهالي البلاد لكي يزداد الانقسام بين ابناء البلد الواحد وتصبح الطريق معبدة امام اطماع الغربيين (٢) . اسمع ما قاله الاب " سورد " فيه

---

(١) S. Panoretoff ; Near Eastern Affairs and conditions, p. I49

(٢) Pierre Ghaleb , p. III .

خير برهان لصحة ما نرمي اليه . " ان المبشرين الذين يجدون في سبيل ازدهار المستعمرات التابعة لاوطانهم لا يعنيهم اي عذاب ضمير او تصادم نفساني ، اذ كيف لا يعمل المبشر على تقوية نفوذ وطنه المستعمر ضد ادعاءات سكان البلاد الحقه (اي البلدعاءات) ـ وامام خطر القومية المتيقظة بينهم والمتغذية بروح الثورات (١) .

ولا يقل شأن الدعاية والكتب التي اصدرها بعض الغربيين من هذه البلاد عن شان بعض ما تقدم ذكره من العوامل .

فعندما انهارت الامبراطورية العثمانية وتحرر هذا القطر من حكم العثمانيين الذي دام اربعة قرون كانت بعض النظم والقوانين الطائفية تتحكم بحياة هذا المجتمع ، وكانت روح الانعزال الطائفية متفشية بين ابنائه . يدلنا على ذلك ما ظهر في تلك الاثناء من ميول مختلفة تجاه وضع البلاد (٢) ، كانت تصدر باسم بعض الطوائف رغبة منها كما زعمت في حفظ كيانها من طغيان الاكثرية الرامية الى القضاء عليها . غير انه على الرغم من ذلك كان هنالك فئة من الناس استشهدت في سبيل القضية العربية الكبرى دون اي تمييز بين الطوائف والاديان وكان ذلك ثمرة من ثمار الروح القومية التي بدأت تجتاح النفوس والتي اخذت في القضاء تدريجيا على النعرات الانفصالية التي شاعت في جسم المجتمع السوري وكانت سببا لتفككه وتخاذله خلال التاريخ . ولعله من الصعب على المرء ان يتكهن بما كان يحدث لو قيض لهذا البلد ان يظل مستقلا تحت زعامة الملك فيصل الاول ، ولكننا نميل الى الاعتقاد بانه لو تم ذلك لكانت الطائفية بنظمها وقوانينها وما تحدثه من نعرات انفصالية اثرا بعد عين ، ولما تفتحت عيون ابناء هذا الجيل على عيوبها ومشاكلها . بيد ان الظروف جاءت عكس ما تمناه كل عربي ودخلت سوريا تحت سلطة الانتداب الفرنسي الذي اهمل الروح الوطنية الموحدة واهمل شعور الاكثرية الساحقة وراح يجدد الطائفية اساسا لتقطيع اوصال هذا القطر من الناحية السياسية والتشريعية وغيرها . (٣). فكان اول عمل قامت به فرنسا في هذا الخصوص ان خلقت في سوريا دويلات متعددة قائمة على اساس طائفية بحتة . قال الجنرال غورو مخاطبا اهل دمشق : " ان الخطوة الاولى التي اتخذتها فرنسا للمحافظة على روح الانسجام والحرية الوطنية بين السوريين كانت في خلق هذه الدويلات التي من

---

(١) ـ H. Lahham , p. 83

(٢) ـ حنا خباز ، فرنسا وسوريا ، ج ١ ـ ص ٢٧ .

(٣) ـ E. Rabbath, Revue ... p. 482 & 483 .

شأنها ان ترضى النعرات الانفصالية وتجعل طلاب الانفصال يعيشون ضمن الحلقة الكبرى ـ اى سوريا ـ فى جو يسوده الانسجام (١) . وليس من شأننا الان ان نناقش هذه السياسة التى اتبعتها الدولة المنتدبة منذ البداية ، ولا ان نحقق فى حسن نية الفرنسيين تجاه البلاد بل نكتفى بالاشارة الى ان هذه السياسة قد اخفقت فى التوفيق بين العناصر المختلفة ووسعت هوة الانشقاق والانفصال بين ابناء هذا القطر . وهذا ما كانت تقصده فرنسا بالحقيقة ـ ولو انها كانت تتذرع بغيره من الذرائع الانسانية ـ لكي تتمكن من السيطرة على هذه الربوع . ان العاقل الحكيم يعلم تماما بان فرنسا قد ارتكبت خطا فاضحا فى اتباعها لتلك السياسة الحمقاء فلقد زادت مهمتها صعوبة فى سلوكها ذلك السبيل الوعر الذى كان بوسعها الاستغناء عنه لخلوه من اى مصلحة سياسية او اجتماعية . غير ان الدولة المنتدبة كان ينقصها بعد النظر وصحة التفكير اذ لم تقف فى سياستها تلك عند حد التقسيم وخلق الدويلات فحسب ، بل زادت الامر تعقيدا بان استوحت الطائفية فى الحقل الدستورى والتشريعي والقضائي ضمن نطاق كل دولة من تلك الدويلات . حتى اصبح دستور كل دولة يخلقها الانتداب يتضمن ترتيبا خاصا بحقوق الاقليات المدنية والعامة . فلقد حفظ لهم مقاعد معينة فى المجالس النيابية والادارية طبقا لعددهم فى الدول التي ينتمون اليها ، كما ان الحكومات المختلفة كانت تجبر على توزيع الوظائف الكتابية بطريقة تتلاءم مع النسبة العددية للطوائف الموجودة ، ولو ان ذلك لم يصرح عنه فى الدساتير (٣) . وهنالك امر اخر يفوق كل ما تقدم من حيث الاهمية والخطر وهو ان الانتداب قد اقر صلاحيات المحاكم الشرعية المنظمة بفعل قانون صدر سنة ١٩١٧ والذى يتناول امور الاوقاف والزواج والطلاق والميراث الخ ... ثم عمل بشكل واسع على تحقيق الاستقلال الذاتي بكل ما يتعلق بالاحوال الشخصية (٢) . ولكي يحول دون المظالم السابقة التي كان يتعرض لها الشيعة والعلويون ابان العهد العثماني ، فقد اعترف لهؤلاء بامتيازات طائفية كثيرهم تختص باحوالهم الشخصية وشؤونهم الدينية (٤) .

---

(١) E. Rabbath, Evolution Politique...p.I28

(٢) E. Rabbath, Revue ... p. 483 .

(٣) H. Lahham , p. 78

(٤) E.Rabbath, Revue... p. 484

تلك كانت سياسة الدولة المنتدبة من هذه الناحية فى سوريا ، فبين تيارين متضادين ، تيار القومية العربية الناشئ وتيار الانفصالية الرجعية ، عمد الفرنسيين الى مساعدة الثاني على الاول بكل ما لديهم من قوة لكي يتمكنوا فى نهاية الامر من خلق شعور وطني سورى ضيق بعيد عن الفكرة العربية وعن كل ما يمت بصلة اليها (١) .

لقد تبين لنا من كل ما تقدم كيف نشأت المشكلة الطائفية فى سوريا ثم كيف ترعرعت وتوطدت اركانها فى هذا المجتمع على مدى التاريخ . ولقد نتج عنها مساوئ عديدة تناولت هذا القطر من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكانت ابدا الحائل الاكبر دون تقدمه ورقيه . والسبب فى ذلك يرجع الى ان كل طائفة كانت تتميز عن غيرها فى حياتها الخاصة وما يتبعها من نظم ومؤسسات . فالعائلة التي تعد وحدتها ضرورية لوحدة الوطن كانت متنوعة بتنوع الطوائف التي تنتمي اليها . فكان المرء يشاهد فى المجتمع السورى انواعا متمايزة من النظم العائلية الموروثة عن التقاليد والعادات المختلفة باختلاف العقائد والمذاهب . وتبعا لهذا التباين فقد هذا المجتمع وحدته الروحية لان العائلة هي المكان الاول الذى يتلقى فيه الطفل افكاره وعاداته ويستمد منها مشاعره واحاسيسه . فاذا ما نشأ نشأة تختلف عن غيره اصبح من الصعب ان يتفاهم مع ذلك الغير فى شؤون الحياة . من هنا يظهر هذا التباين فى الاراء وهذا التغاير فى النزعات والميول الذى ساد المجتمع السورى حقبة طويلة من الزمن وجعله مفككا ينقصه الترابط والاتحاد . ولم تقتصر الطائفية فى تأثيرها السيء على الناحية الاجتماعية فقط بل تعدتها الى الناحية السياسية والناحية الاقتصادية ايضا ، وذلك امر طبيعي لما لهذه النواحي من تاثير على بعضها البعض . فانعكست صورها فى الادارة والقوانين واصبحت اساسا للتمثيل والانتخاب . وكانت ابدا مبعثا للدسائس الاجنبية وسببا مباشرا للفوضى فى الحكم . اما اثرها من الناحية الاقتصادية فكان يظهر فى انعدام حرية العمل التي تعد من الحقوق الحيوية لكل انسان ومن الاسس الجوهرية التي يبنى عليها الازدهار الاقتصادى . ان هذا النوع من الحرية كان معدوما بين الطوائف بفعل التقاليد البالية لا بفعل القوانين . فالمسلمون ـ على الغالب ـ كانوا ارباب الزراعة ، يحتفظون بهذا النوع من العمل الاقتصادى لكونه اكثر ربحا

---

(١) E. Rabbath, Evolution Politique... p.I8-I9

واقوى نفوذا واعظم شرفا فى ذلك العصر ، تاركين لغيرهم من ابناء الطوائف المسيحية واليهودية حقل التجارة والصيرفة وما شابه ذلك (١). ان هذا التقسيم فى الاعمال الاقتصادية بالنسبة للطوائف لا بالنسبة للافراد كما هو شان الطبقات فى الهند ـ يعد فريدا من نوعه وبعيدا عن المبادئ التى تسير الحياة الاقتصادية فى الغرب . فالمزاحمة الحرة مضيق عليها فى ظل نظام كهذا والافراد الذين يشعرون بميل طبيعي نحو عمل ما فى الحقل الاقتصادى يجدون انفسهم مقيدين بتقاليدهم الطائفية التي تحظر عليهم بعض الاعمال وتجبرهم على سلوك مهنة ربما لم يخلقوا لها . فتكون النتيجة وبالا على المجتمع بكامله لان بعض قواه المادية المنحرفة عن مجراها الطبيعي والبعض الاخر الذى توقف عن العمل بسبب التقاليد الطائفية يحدث نقصا فى الانتاج ويخلق مشاكل اقتصادية يهدد كيان الامة باجمعها (٢).

هذه هي بعض نتائج الطائفية فى سوريا ، وانه لمن المقرر ان اغلب المشاكل التي تنوء تحت حملها البلاد حتى اليوم تعود بجذورها الى ما احدثه النظام الطائفي من اثار سيئة مؤلمة .

عند هذا الحد لا بد ان يتبادر للذهن السؤال التالي : هل لا يزال النظام الطائفي قائما فى سوريا على الشكل الذى وصفناه .. ام ان هنالك عوامل اخرى قد اضعفت من مقوماته وان هذه العوامل نفسها تبشر بالقضاء عليه فى المستقبل القريب ..

ان الناظر فى حالة المجتمع السورى هذا اليوم لا بد ان يلاحظ بان الطائفية لم تعد كما كانت فى سابق عهودها بالرغم من ان بقاياها لا تزال ظاهرة بجلاء ووضوح . والسبب فى ذلك يرجع الى النهضة القومية التي اجتاحت هذا المجتمع منذ اواخر القرن الماضي ، والى نمو الحركة الفكرية التي ما زالت تعمل على صهر افراده فى كيان قومي سليم . فى ذلك القرن تفتحت عيون بعض ابناء هذا القطر على محاسن الغرب ومواطن قوتهم وتآلفهم . فتأثروا بذلك ورددوا صدى ذلك التأثر بالدعاية للوحدة القومية والانبعاث الجديد . واخذوا ينددون بالسياسة الطائفية

---

(١) E. Rabbath, Evolution Politique ...p.I7-I8

(٢) E. Rabbath, " " p. I8 ـ

مصدر التفرقة واحدى الاسباب الجوهرية لذلك التاخر المريع الذى كان عليه هذا الوطن آنذاك . ولا عجب اذ انه على الرغم من ان الاسلام قد سمح للطوائف غير الاسلامية بالاحتفاظ بمعتقداتها وتقاليدها ، وعلى الرغم من كونه قد عانى ذاته الم الانشقاق بين سنة وشيعة ، فان وحدة اللغة العربية ووحدة الكيان العربي ظلتا بارزتين على ممر العصور (١) . لذلك كان هنالك بذور للترابط والوحدة بين ابناء سوريا من حيث العنصر واللغة والتاريخ .

ان بوادر هذه النهضة القومية العربية ظهرت فى سوريا اثر احتكاكها الفكرى بالغرب ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان دعاتها الاولون من ارباب القلم ورجال الفكر ، وكان اغلبهم من المسيحيين الذين هرب بعضهم الى مصر خوفا من ظلم السلطان عبد الحميد . على انها لم تظهر بشكل اخذ فعال الا فى الحرب العظمى يوم علق الكثيرون من ابناء البلاد على اعواد المشانق فى سبيل غاية واحدة منزهة عن الروح الطائفية وعنصراتها . فكان استشهاد هؤلاء اول عنوان يرمز للوحدة القومية واول ضربة قاسية توجه الى صميم التكتل الطائفي . منذ ذلك الحين والصراع قائم بين القومية العربية الموحدة ، وبين الطائفية الانعزالية على مسرح هذه البلاد . وكانت الاولى تتمثل قوتها بالاكثرية الواعية من السكان والثانية باقلية ضئيلة من بعض الطوائف يقويها فى ذلك سلطات الانتداب .

ان الشواهد على انتشار الروح الوطنية بين مختلف الطوائف ، ما عدا فئة قليلة مبعثرة هنا وهناك ، تدل دلالة واضحة على مدى الضعف الذى اخذ يشيع فى البنيان الطائفي ، وقد لاحظ الكاتب الفرنسي " غوليس " هذا الامر وهو يتحدث عن الثورة السورية فقال : " فى الساعات العصيبة التي مرت على الثورة السورية الاخيرة (١٩٢٥) كان بطريق الروم الارثوذكس فى دمشق يتعاون تعاونا مكشوفا مع الثوار وباسم الرابطة القومية كان يحض اتباعه على الانتصار لاخوانهم المسلمين . ولقد كان ايضا رئيس الطائفة الارثوذكسية فى جبل الدروز اكبر عون للثوار فى نضالهم التحرري . لهذا لا نكون مبالغين اذا قلنا بان الشعور القومي فى سوريا يأتي من حيث الاهمية والقوة فى الدرجة

---

(١) — G. Antonius , Arab Awakening , p. I7 .

الاولى (١) . وغني عن القول بان اغلبية الشباب المسيحي المنور كانت وما تزال في الطليعة من الوطنيين يشهد على ذلك تضامنها الاخوي مع المسلمين ونضالها في سبيل الاستقلال طوال عهد الانتداب . وهنا لا بد لنا من ملاحظة امرين :

اولا - هو ان الفكرة العربية لم تنتشر بشكل عام بين سائر طبقات الشعب ، بل اقتصرت في البدء على النخبة الممتازة المفكرة ، ثم اخذت تتعمم في التدريج الى ان اصبحت في الوقت الحاضر متغلغلة في اكثر النفوس .

ثانيا - ان الوعي القومي ظل بعيدا عن بعض الفئات التي وجدت فيه خطرا على كيانها لاسباب عديدة منها دعايات الاوروبيين ، فكان هناك نفر من ابناء الطوائف غير المسلمة - خاصة ممن تثقفوا ثقافة غربية محضة وممن تأثروا تأثيرا عميقا بالدعايات الغربية - يتطيرون العروبة خطرا اسلاميا لا بد ان يقضي على حريتهم وحقوقهم (٢) .

ان هذه الفئة القليلة التي لاتزال تمثل النعرة الطائفية او اي نعرة انفصالية اخرى مستمدة من الاولى سوف تتحقق في القريب العاجل من ان تلك الاوهام التي حملتها حتى اليوم بفعل الدسائس الاجنبية لا ترتكز على اساس . وبفضل ذلك وفضل الضغط الشعور القومي سوف تذوب على الايام ضمن البوتقة الكبرى . ان بقايا الطائفية في سوريا تتمثل في هذه الفئة من الناس التي تحرص كل الحرص على ما ورثته عن الماضي . وفي بعض النظم والمؤسسات والشرائع التي تلقتها سوريا عن العهد العثماني ثم عهد الانتداب ولتبيان ذلك نقول بان الشاهد على بقاء بعض الفئات التي ما زالت تحمل النعرة الطائفية هو سلوك هذه الفئة ابان الحوادث الاخيرة التي مرت على سوريا حين كانت تناضل في سبيل حريتها واستقلالها . فلقد بدر منها امور عديدة لا تدع مجالا للشك في نواياها . من تلك الامور ان بعض الافراد الذين يمثلون تلك الفئة ، كانوا يرمون الجحافل الفرنسية المارة في شوارع احدى المدن السورية - لاجل التهويل والقاء الذعر في نفوس الشعب - بالورود والرياحين ثم يهزجون متغنين لها النصر في مهمتها . وبعد ان تحقق الاستقلال وتأكدت هذه الفئة من فشلها اخذ الكثيرون

---

(١) - M. Ajlani, La Constitution de la Syrie, p. 35 .

(٢) - ومما لا شك فيه ان تصور البعض للعروبة كفكرة اسلامية يرجع سببه ايضا الى بعض التصريحات التي ادلى بها بعض المسؤولين من رجالات الاقطار العربية ، والتي تنم على انهم ما زالوا يجهلون الفرق بين العروبة والاسلام .

من افرادها يرحلون عن الداخل قاصدين لبنان . بيد ان المشكلة الطائفية في سوريا لا تقتصر في الوقت الحاضر على وجود هذه الفئة القليلة البعيدة في روحها ومشاعرها عن الفكرة الوطنية والقومية ، بل تتعداها كما اسلفت الى بعض الانظمة والقوانين التي ما زال يؤيدها الرجعيون من اهل البلاد . وها نحن نورد فيما يلي قسما منها :

اولا = المادة الثالثة من الدستور السوري التي تقول بان سوريا هي جمهورية برلمانية دين رئيسها الاسلام .

ثانيا = قوانين الاحوال الشخصية التي تجعل السوريين المنتمين الى الطوائف المعترف بها ، خاضعين لنظام طوائفهم الشرعي في الامور المتعلقة باحوالهم الشخصية .

ثالثا = قانون الانتخاب للمجلس النيابي الذي ينص على توزيع المقاعد النيابية لكل دائرة انتخابية حسب عدد الطوائف المعترف بها قانونيا .

رابعا = قوانين الانتخاب لمجالس المحافظات والاقضية التي تنص ايضا على تمثيل افرادها تمثيلا يتلاءم مع عدد افرادها .

ان جميع هذه القوانين المذكورة المنبثقة عن حالة اجتماعية ماضية وعن ظروف سياسية خاصة قد زال مبررها ولم يعد هنالك من داع لوجودها بعد ان حصل هذا القطر على حريته واستقلاله . فبقاء المادة المتعلقة بديانة رئيس الجمهورية في الدستور السوري كما كانت عليه في السابق تجرح شعور ابناء الطوائف غير المسلمة وتخلق بينهم وبين المسلمين جوا من الحذر وسوء النية ، كما انها تحول دون تحقيق حرية المعتقد الضرورية لكل كيان يتساوى فيه الافراد من حيث الحقوق والواجبات (١) . كذلك الاعتراف بحقوق رجال الدين التي ورثوها عن الماضي وتثبيت القوانين الخاصة بالاحوال الشخصية تعد عقبة كاداء في سبيل نهوض هذا الوطن وتقدمه من الناحية القومية . اذ ان وجود تشاريع مختلفة لفئات مختلفة تتناول ادق شؤون الحياة ، واقربها لمشاعر المرء واحاسيسه ، لا بد وان ينتج عنها تباين بين تلك الفئات من حيث المبداء والشعور فيقضي بذلك على عامل الوحدة

---

(١) — F. Mufarrig, Syria & Lebanon under the French Mandate , p. 415

والانسجام اللازم لخلق اى امة او دولة فى العصر الحديث . ونزيد على ما تقدم بان قوانين الانتخاب للمجالس النيابية والمجالس الادارية التي لا تزال قائمة على اساس طائفي لا يقل خطرها عما سبق ذكره فى التفريق بين المواطنين وبالتالي فى القضاء على البنيان القومي المنشود .

ان هذه الاثار الطائفية التي تعمل فى كيان الدولة السورية حتى اليوم لم تعد تتلاءم ابدا مع حاجات التطور الجديد . ولقد اصبح تكوين هذا المجتمع على اساس قومي ضرورة قصوى يفرضها قانون التطور والنشوء على الطوائف المختلفة ، وبدونه تكون هذه الطوائف قد حكمت على نفسها وعلى البلاد بالفوضى وبالرضوخ لسيطرة الاجنبي . اجل ان المتعمق فى دراسة تطور المجتمع السورى ليشعر بما طرأ على العصبية الدينية واخذ من ضعف وانه ليتفاءل بامكانية الزمن فى القضاء على كل شيء من هذا القبيل . غير ان ذلك لا يكفي بل يجب على الدولة وعلى الافراد الواعين ان يساهموا فى عملية الهدم وعملية البناء . ان الامتيازات القديمة التي كانت تتمتع بها الطوائف غير المسلمة كانت ناتجة عن وضع اجتماعي خاص وظروف سياسية خاصة . لذلك اصبح من البديهي بعد ان تم الاستقلال وبعد هذا التطور الذى طرأ على المجتمع السورى وفى ظل النظام الديموقراطي الحاضر الا ينعم رؤساء الطوائف بحقوق وامتيازات غير التي تحمل طابعا روحيا صرفا ، لان اغلب مشاكل هذا القطر ناشئة عن خلط الدين بالدولة . (فالدولة يجب ان تصبح علمانية لكون الدين مسألة شخصية تتعلق بحياة الفرد لا بحياة المجموع) .

هذا هو الحل الوحيد والمعقول للمشكلة الطائفية التي تعمقت جذورها فى المجتمع السورى حتى غدا اقتلاعها من الامور الصعبة المنال . اما ان نقول بوجود دين للدولة واتباع سياسة التسامح تجاه الاقليات فذلك مما لا يأتلف والاسس القويمة الصحيحة التي يجب ان ترتكز عليها الدولة فى العصر الحديث . وانني لعلى اتفاق مع " توماس بين " فى قوله : " ان التسامح ليس النقيض لعدم التسامح بل هو تزييف له . كلا هما يعني الاضطهاد " . فلكي يشعر كل مواطن بانه لا منة لاحد عليه وان له من الحقوق ما لغيره وان عليه ما على غيره من الواجبات يجب ان تزول فكرة التسامح من نظم الدولة وقوانينها لكونها تعلن عن وجود فئتين من الناس ضمن الوطن الواحد ، فئة يسمح لها وفئة يصدر عنها السماح . ولا يتم ذلك الا بجعل القوانين علمانية اى بجعلها خارجة عن حقل الشرائع الدينية .

من كل ما تقدم يمكننا ان نستوحي الاصلاح التالي للمشكلة الطائفية الطائفية في سوريه هذا الاصلاح الذي يحقق علمانية الدولة ويجعلها على غرار تركيا الكمالية التي كانت تعاني نفس المشكلة في العهد العثماني .

١ = الغاء الامتيازات الطائفية . ان هذه المهمة بلا ريب صعبة جدا . فرؤساء الاديان الذين تعودوا على اوضاعهم الخاصة التي كانت تحترمها الدولة فيما مضى سيناوئونها بكل ما لديهم من قوة ، غير ان الاقدام على مثل هذا الامر ضروري ان كانت الامة ترغب في الخروج من هذا الوضع الشاذ .

٢ = اصدار قانون مدني حديث وهو شيء طبيعي يأتي كنتيجة للاصلاح الاول . لكنه يجب ان لا ينقل حرفيا عن قوانين احدى البلدان الغربية ، بل ان يكون مبنيا على اسس مستوحاة من حاجات الامة وتجارب غيرها من الامم العريقة في الرقي .

٣ = محاربة كل عوامل الانقسام الخارجية . ويعني ذلك بانه يترتب على الحكومة ان تحول دون نشاط المبشرين الاجانب وان تمنع قدومهم الى هذه البلاد . كما انه يجب ان تظل يقظة واعية على اعمال قناصل الدول الاجنبية في المرحلة الاولى من استقلالها خاصة في بعض الاماكن من هذا القطر (١) . كذلك يجب ان لا يسمح للمعاهد العلمانية الاجنبية بالتعليم شرط ان تكون هذه المعاهد نفسها خاضعة لرقابة شديدة من الحكومة .

٤ = جعل التعليم الوطني علمانيا صرفا . اي تربية الناشئة الجديدة على الروح القومية لكي تتآلف القلوب وتتوحد الميول والافكار . اما التعاليم الدينية فتترك حرة لمن يشاء .

٥ = ان يقضى على كل تمثيل طائفي في المجالس النيابية والادارية وان تمحى كل اشارة ترمز الى كون الشخص ينتمي الى هذه الطائفة او تلك (٢).

وبكلمة واحدة واخيرة يجب ان يفصل الدين عن الدولة لكي تتحرر الحياة العامة من كل العقبات الطائفية ، فيكون ذلك سببا لاعلاء شأن الدين واعلاء شأن الوطن .

---

(١) ـ لقد اصدرت الحكومة السورية قرارا تمنع بموجبه الدول الاجنبية من احداث قنصليات لها في منطقة العلويين وجبل الدروز ، وهي خطوة مستحسنة من الحكومة تدل على يقظة وانتباه . القرار المذكور في جريدة " النذير " الصادرة في حلب عدد ١٨٨٠ : ١١ اذار ١٩٤٦

(٢) ـ اي يجب ان تمحى التابعية الطائفية من دفاتر الهوية والاحصاء الخ .

مشكلة الاقليات العنصرية

لم يكن هنالك اقليات عنصرية تستحق الذكر في هذا القطر قبيل عهد الانتداب . ولو سلمنا جدلا بوجود بعض الفئات الكردية والجركسية والارمنية الا ان السياسة التي كان يتبعها العثمانيون تجاه رعيتهم لم تكن لتفرق بين شعب واخر بشرط ان يكون الافراد من المسلمين . فكان كل مسلم يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها غيره دون اي اعتبار لعنصريته ولغته وتاريخ قومه (١) . ولقد تبين لنا من دراستنا لمشكلة الطوائف بان المشكلة التي تدعى بمشكلية الاقليات كانت ناتجة عن سبب ديني ابان العهد العثماني وانها لم تكن لتمت الى العنصرية بشيء . لهذا فان مشكلة الاقليات العنصرية هي مشكلة طارئة على هذا الوطن ، نشأت فيه منذ عهد قريب تحت تاثير عاملين .

اولا - عامل اليقظة القومية التي اضعفت من قوى الدين كاساس لترابط الاقوام المختلفة ، والتي كان من نتائجها ان اخذت شعوب الامبراطورية العثمانية تطالب باستقلالها وحريتها ، تحدوها غاية واحدة ، هي جمع شمل ابنائها تحت راية دولة موحدة تقوم على اساس قومي . لذلك اصبح وجود اي فئة من تلك الشعوب - الطامحة لخلق كيان خاص بذاتها - ضمن دولة اخرى لا تمت اليها بصلة من الناحية القومية ، مدعاة لاعتبارها اقلية عنصرية ، ينظر اليها نظرة الحذر ولا يؤتمن جانبها .

ثانيا - عامل السلطة المنتدبة التي كان من غاياتها في سوريا اضعاف الروح القومية العربية بخلق شتى الميول والنزعات (٢) . لهذا لم تتورع السلطة الفرنسية عن ادخال عناصر مختلفة الى هذا القطر بغية القضاء على وحدته القومية ، فأباحت للكلدان والاشوريين والسريان من مهاجري خربوط وديار بكر ان يدخلوا سورية واقطعتهم الاراضي واعطتهم الاموال ، وأباحت للاكراد الطريدين من تركيا وللارمن ان

---

(١) W. Talcott , Turkey : A world Problem; p. 85-86

(٢) G. Antonius, Arab awakening , p. 369

يدخلوها واعطتهم كل الحقوق والمزايا الوطنية ثم فرقتهم الى مستعمرات ووضعتهم في المراكز المختلفة فصاروا اكثرية في القامشلي وجرابلس وقرق خان والحسجة ثم اصبح لهم وزن في حلب ايضا (١) . هذا فضلا عما فعله الفرنسيون لايقاظ النعرات الانفصالية بين تلك الاقوام .

وهكذا نجد ان الاقلية من الاقليات العنصرية الموجودة حاليا في سوريا ، هي وليدة عهد الانتداب اذ انها استوطنت هذه البلاد واكتسبت حقوق ابنائها الشرعية في ابانه بفعل سلطة الدولة المنتدبة . واهم هذه الاقليات ، هي الارمن والاكراد والشركس والاشوريون . وسنسعى الان لندرس تاريخ كل منها في هذا القطر مع تبيان اوضاعه وميوله بشكل مقتضب بسيط .

١ = الارمن : - تقع بلاد ارمينيا بين البحر الاسود وجورجيا من الشمال ، وهضاب اذربيجان والجهة الجنوبية من بحر الخزر من الشرق ، والضفة العليا لنهر الدجلة من الجنوب ، ثم سهول الفرات الغربية من الغرب .
ان هذه الحدود الجغرافية لم تشكل دولة ذات كيان موحد الا مرة واحدة في التاريخ وذلك في عهد ديكران الكبير قبل التاريخ المسيحي بقرن واحد (٢). وما عدا تلك الحقبة من التاريخ فان بلاد ارمينيا قد وقعت بالتتالي تحت سلطة المديين ، الميديين فالفرس فالسلوقيين فالرومان الشرقيين فالعرب المسلمين . ولعل السبب في ذلك يعود الى طبيعة هذه البلاد الجغرافية والى ان ارمينيا كانت خلال تاريخها محاطة بامبراطورية قوية دأبها السيطرة والتوسع (٣) .

ولما حدثت الحروب الصليبية على مسرح الشرق الادنى تمكن الارمن بحكم حلفهم مع الصليبيين من احداث مملكة كيليكيا ودعوها باسم ارمينيا الصغرى ، غير انها لم تلبث ان زالت من معالم الوجود يوم قوّض صرحها المماليك في القرن الرابع عشر للميلاد . اما ارمينيا الكبرى فانها خضعت للنفوذ التركي منذ القرن الحادي عشر حين احتل السلطان الب ارسلان عاصمتها عقب انتصاره على الامبراطور

---

(١) - عبد الرحمن كيالي ، رد الكتلة الوطنية ، ص ٣٩

(٢) - Streck , Armenia , In Ency. of Islam .

(٣) - R.Blanchard , Asie Occidentale , t.III de la collection de Geographie universelle , p. I25.

رومانوس . وفي بداية القرن التاسع عشر اخذ الروس يتوسعون على حساب الامبراطورية العثمانية في المقاطعات الشمالية من ارمينيا — ولقد تم لهم بعض ما ينشدون — حتى غدت بلاد ارمينيا في الوقت الحاضر مقسمة بين تركيا وروسيا وايران (١).

كان الارمن يعيشون ضمن الامبراطورية العثمانية على اساس ملّي ، اي ان الدولة كانت تعترف بهم كطائفة دينية لها ما لغيرها من الامتيازات والحقوق. ولقد تمتعوا بجو مملوء بالحرية ، وكان العثمانيون ينظرون اليهم كعنصر كبير الفائدة للدولة خاصة فيما يتعلق بالناحيتين : التجارية والصناعية (٢) . على ان هذه الحالة لم تبق على ما كانت عليه في العهد الاول بل طرا عليها تغيير اساسي عقب الحرب الروسية سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ م ، فقد اصبحت العلاقات التركية الارمنية بعد ذلك التاريخ قاسية صعبة ، وحدثت مذابح عديدة ذهب ضحيتها الوف من ابناء هذا الشعب . وكانت الدول الاوروبية الكبرى تتدخل بين الحين والاخر وتجبر الحكومة العثمانية على تحسين حالته حسبما تتطلبه حاجاته المحلية ، مع تامين سلامته من هجمات الاتراك الاكراد .

الى ذلك الحين لم تكن اغلبية الشعب الارمني واعية قوميا ، الا ما ندر من المثقفين اللاجئين الى اوروبا . لذلك تاسست الجمعيات السرية الارمنية وبدأت تعمل على ايقاظ الروح القومية بين مجموعة الشعب الارمني وتحثه على تعلم لغة قومه والتحرر من ربقة النير العثماني . وكان العثمانيون في اول الامر غير مبالين بتلك اليقظة القومية ، ظنا منهم ان الشعب الذي يتغذى بتاريخه وامجاده لا يشترط ان يثور لاجل الحرية والاستقلال في يوم من الايام (٣) . وعندما اخذت الحركة تتطور بطور سريعا وبدأت تظهر اهميتها بالفعل ، لاحظ الاتراك خطرها وصاروا يناوئونها بشدة وصرامة كانت تزداد بازدياد مقاومة ذلك الشعب الثائر . وهكذا نجد ان الروح القومية كانت تلتهب عند ابناء ارمينيا يوم اندلعت نيران الحرب العظمى ،

---

(١) H. Lahham , Le Problème Minoritaire en Syrie, p. 290 , and Streck ,"Armenia " , Ency. of Islam.

(٢) Mandelstom, La Société des Nations et les Puissances devant le Problème Arménien., p. 34

(٣) Pernot , Revue des deux mondes , I5 Avril I922, p. 9I9 .

فكان لهم ما كان لغيرهم من الوعود التى جاد بها الحلفاء . تلك الوعود التي ما لبثت ان انهارت امام الرفض التركي بالتناول عن اى قطعة من اراضي تركيا اثناء مفاوضات الصلح التى دارت فى لوزان سنة ١٩٢٢ – ١٩٢٣ ، فكانت النتيجة ان شتت شمل الارمن وتفرقوا بين مختلف الاقطار . فنالت سوريا منهم عددا كبيرا (١)

اذا ما استثنينا بضعة الاف من الارمن المقيمين فى حلب منذ اواخر القرن التاسع عشر ، لا نجد اى مستعمرة ارمنية فى هذا القطر قبل حلول الانتداب . فالهجرة الارمنية الواسعة حصلت اثر الجلاء الذى تم عن كيليكيا بعد " تفاهم " انقرة سنة ١٩٢٠ ، ثم حصلت هجرة واسعة اخرى سنة ١٩٢٢ عقب الانتصار التركي على اليونان . هذا فضلا عما كان يتسلل من جماعات صغيرة دون انقطاع . ولقد كان عمال الانتداب فى سوريا يشجعون تلك الهجرات ويمدون اصحابها بالمال .

انتشر هؤلاء المهاجرون الارمن فى جميع انحاء سورية ، غير ان الاغلبية منهم سكنت حلب وبيروت والاسكندرونة ودمشق ، وبنت لنفسها احياء خاصة فى تلك المدن . لان الارمن اينما ذهبوا ومهما كانت الظروف ، يؤسسون كنائسهم بالقرب من مدارسهم ويعيشون متكتلين حولها ، وهم يفعلون ذلك قصد المحافظة على وحدتهم القومية التى لاقوا من اجلها شتى ضروب الاضطهاد (٢) . ولقد فشلت السلطات المنتدبة فى اسكان بعضهم فى القرى والمزارع ، لانهم لم يساهموا كما توقعت تلك السلطات فى اغناء البلاد وتحسينها الزراعي مثلما كان شأنهم فى جهات الاناضول . ولعل السبب فى ذلك يعود الى خوفهم من السكني بين اكثرية مغايرة لهم بالعنصر والدين وحبهم ان يعيشوا متكتلين حول بعضهم داخل المدن حيث يعمل اغلبهم فى الصناعات الصغيرة .

ان الاحصاء الحديث للارمن الذين يعيشون فى سوريا هو التالي (٣) :

---

(١) – H.Lahham , p. 298

(٢) – Babikian , "Civilisation and education in Syria & Lebanon p. I68

(٣) – H.Lahham , p. 308 - 3I0 .

احصاء الارمن فى سوريا

١ = محافظة دمشق :

ا ـ مدينة دمشق	١٨٬٣٠٩	ث ـ قضاء النبك	٢٨
ب ـ قضاء القنيطرة	٦٨	ج ـ = وادى العجم	١٤
ت ـ = الزبداني	٥	ح ـ غوطة دمشق	٨
		المجموع :	١٨٬٤٣٢

٢ = محافظة حلب :

ا ـ مدينة حلب	٥٨٬٢٩١	ح ـ قضاء الباب	٨٣٨
ب ـ قضاء جرابلس	٢٥٩٣٤	خ ـ = كرد داغ	٥٨٩
ت ـ = اعزاز	١٬٨٢٥	د ـ = منبج	٣٥٨
ث ـ = الجسر	٣٣٤	ذ ـ = ادلب	٢٩٥
ج ـ = المعرة	١٧٠	ر ـ = حارم	٢٠
	٦٥٬٦٥٤		

٣ = محافظة حمص : ٨٥٠ فى الاقضية والمدينة

٤ = محافظة حماة : ٥٠٧ = = =

٥ = محافظة حوران :

ا ـ قضاء درعا	١١٦	ت ـ قضاء الزاوية	٢
ب ـ قضاء اذرع	١٠٦	المجموع	٢٢٤

٦ = محافظة الفرات :

ا ـ قضاء الرقه	١٬٦٨٨	ت ـ قضاء ابو كمال	٣٧
ب ـ دير الزور	١٬٠٠٥	ث ـ =	٢٬٧٤١

٧ = محافظة الجزيرة :

ا ـ القامشلية	٥٬٩٤١	ب ـ الحسجة	١٬٤٠٥

٨ = محافظة جبل الدروز : ٣٨٩

٩ = محافظة اللاذقية ٢٬٧٣٦

ان هذا الشعب الذى يعد مغايرا لابناء هذا القطر العربي من حيث اللغة والتقاليد والعنصر ، والذى يطمح لغير ما يطمح اليه ابناء البلاد الاصليون ، قد فرض عليهم حتى بتجمعاته الكبيرة داخل المدن ، تلك التجمعات المنعزلة الخطرة بالنسبة الى وحدة البلاد القومية . ولقد منحت السلطات المنتدبة افراد هذا الشعب كافة الجنسية السورية وما يترتب عليها من حقوق . فاصبحوا يمثلون فى دوائر الدولة السورية وينتخبون الى مجالسها الادارية والنيابية . هذا على الرغم مما اظهره بعضهم من العداوة الواضحة تجاه قضية البلاد الوطنية في الثورة التى وقعت سنة ١٩٢٥ ، وفى غيرها من المناسبات ، وعلى الرغم من انهم لا يزالون يحتفظون بلغتهم ويشكلون كيانا خاصا ضمن المجموعة السورية . وعلاوة على ذلك فان تمركز الارمن على الشكل المعهود وكثرتهم العددية ادت الى انخفاض مستوى المعيشة فى سوريا والى خلق ازمة اقتصادية بين الطبقات العاملة لابناء البلاد دامت عدة سنين (١) . لهذا نجد ان السوريين العرب ينظرون اليهم حتى اليوم نظرة ملؤها الشك والارتياب ، لان موقف الارمن اثناء الثورة السورية ، وفى غضون عهد الانتداب ثم تكتلهم وانعزالهم داخل المجتمع السورى ، واخيرا ذلك الاثر الذى احدثوه فى اول الامر من الناحية الاقتصادية ، جميع هذه الامور جعلت اهالي البلاد لا يطمئنون اليهم بل يوجسون منهم خيفة على وحدة الوطن واستقلاله . ونحن لا نستغرب هذه الشكوك وذاك الحذر اللذين يظهرهما السوريون تجاه هذا الشعب ما دام لا يزال متمسكا على ذاته لا يشارك سكان البلاد الاصليين حياتهم الاجتماعية ولا يبدى اى رغبة فى الامتزاج والتعرب هذا فضلا عن انه ما زال محافظا على طابعه القومي وانقساماته السياسية التى نشأت قبل مجيئه الى سورية . فالارمن اليوم يتبعون سياسة حزبية خاصة تقتصر عليهم . وهم لا يشاركون البلاد حياتها السياسية الا ضمن الجهاز الحكومي حيث يوجد بعض الافراد الذين يمثلون طائفتهم بحكم القانون . اما ما عدا ذلك فلهم ـ كما اسلفنا ـ احزابهم الخاصة التى وان اختلفت من حيث التفاصيل والاسلوب الا انها جميعا تتجه نحو غاية واحدة يحددها مبدا واحد وهو بناء وطن قومي

---

(١) ـ سعيد حماده ، النظام الاقتصادى فى سوريا ولبنان ، ص ٢٦
" على ان زيادة الايدى العاملة التى نتج عنها هبوط فى الاجور كانت من العوامل الفعالة فى
" زيادة الانتاج خاصة فى تشييد البنايات وفتح الطرق وتعبيدها واصلاحها . ان الارمن
" بسبب حذاقتهم فى الامور الصناعية ساعدوا الى احياء عدة صناعات وطنية ، على مر الايام ".

ارمني يضم ابناء هذا الشعب في ظل دولة حرة مستقلة .

لهذا يجد الارمن الذين يعيشون في هذا القطر العربي انفسهم ، كما يقول الاستاذ بارونك توماسيان امام امرين . الامر الاول هو الذهاب الى ارمينيا السوفياتية التي ترحب بمقدمهم فيعيشون بين اخوانهم في تلك الديار . والامر الثاني هو البقاء في سوريا مع العلم بانه لا بد لهم من التعرب والتنازل عن فكرتهم القومية وما ينتج عنها من تكتل وانعزال (١) .

والظواهر تدل على ان حل مشكلة الاقليات الارمنية في هذه البلاد ستاتي عن طريق هذين الامرين . اذ ان هنالك فئة كبيرة من الارمن العمال ترغب في المهاجرة الى ارمينيا السوفياتية ، وهذه الفئة تجد لهذه الغاية جميع المساعدات والتسهيلات (٢) . كما ان من سيبقى منهم من الاغنياء واصحاب المصالح اصبح موقنا بان مصلحته تقضي عليه بالتعرب ان كان حقا يبغي لنفسه حياة هادئة مطمئنة .

٢ = الاكراد : — ان بلاد الاكراد الاصلية والموطن الذي يطالبون باستقلاله اليوم هو كردستان . وهي منطقة جبلية تتخذ شكل الهلال وتمتد من ولاية لورستان الفارسية الى خربوط فملتقى فرعي نهر الفرات ، على طول يبلغ ٩٠٠ كيلومترا من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وعرض يبلغ ١٠٠ الى ٢٠٠ كيلومترا

هذه المنطقة مقسمة من الناحية السياسية بين تركيا والعراق وايران والقوقاس التابعة للاتحاد السوفياتي . وهنالك اكراد يقطنون غير هذه البقعة من الوطن التاريخي ، موزعون في اقطار مختلفة كمصر وسوريا والافغان (٣).

ان صروف الدهر وتقلبات الزمان حالت دون تحقيق رغبات هذا الشعب المحارب في سبيل استقلال بلاده ، لكنه ظل في اغلب الاوقات ينعم بنوع من الحرية الذاتية ضمن البلاد التي كان يعيش فيها . وان ضربنا صفحا عن تاريخه القديم نجد انه منذ ان تأسست

---

(١) — من مقابلة مع بارونك توماسيان — احد الاساتذة الارمن في جامعة بيروت الاميركية .

(٢) — ظهر في جريدة " النذير " الحلبية عدد ١٩٣١ السنة العاشرة ، ١٤ ايار ١٩٤٦ ، بانه ينتظر المباشرة بترحيل الارمن العاطلين عن العمل الى ارمينيا السوفياتية اعتبارا من اول حزيران القادم . وانه ستصل لجنة ارمنية سوفياتية الى سوريا خلال الايام القريبة ، ومهمتها ترحيل الارمن الى بلادهم .

(٣) V. Minorsky , " Kurds " in Ency. of Islam

الامبراطورية العثمانية ، كان سلاطين بني عثمان يتخذون الاكراد وقسما من منطقة كردستان واسطة لمراكهم مع الصفويين الفرس . ولقد نتج من اثر هذا العراك الذى لعب فيه الاكراد دورا عظيما ان بدأوا يشعرون باهميتهم السياسية . ولما استقرت الحدود التركية الفارسية ، والتفت السلاطين الى الحقل الداخلي كي يثبتوا نفوذهم ضمن الامبراطورية الجديدة ، استعانوا بهؤلاء القوم فى تثبيت ذلك النفوذ وتحقيق السلطان المركزى . لكن العثمانيين لم يضمروا خيرا لهذا الشعب ولم تكن موافقتهم على منح الاستقلال الذاتي للامراء الاكراد فى مقاطعاتهم الا حركة سياسية دفعتهم اليها الظروف فى بادىء الامر . فلما سنحت لهم الفرص لم يألوا جهدا فى تنفيذ مآربهم والقضاء على ذلك الاستقلال . حتى انه لم يات القرن التاسع عشر على نصفه حتى زالت اخر المقاطعات الكردية من تركيا (بطليس ، حكارى ، سليمانية) (١) .

ثار الاكراد مرات عديدة فى غضون ذلك القرن لمقاومة السياسة العثمانية الرامية الى القضاء على الحرية الذاتية التى كانوا يتمتعون بها منذ القديم ، ومنذ فجر القرن العشرين ظهرت الى الوجود حركة كردية قومية كانت تستهدف تحرير كردستان وتوحيدها . وتاسست لهذه الغاية عدة صحف ومجلات فى اللغة الكردية عقب ثورة الاتحاديين . وحينما انتهت الحرب العامة الاولى وانعقد مؤتمر الصلح الدولي فى فرساى ، سمع ذلك المؤتمر بمطاليب الوفد الكردى برئاسة الجنرال شريف باشا . فكان هذا الامر داعيا لوضع بنود خاصة بالمسالة الكردية بمعاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ . التى اشترطت فى قسمها الثالث " البند ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ " الحكم الذاتي واخيرا الاستقلال فى المناطق المكونة من اكثرية كردية (٢) . بيد ان النهضة القومية الكردية (الكمالية) ونضال الغازى مصطفى كمال جعل هذه الشروط لاغية المفعول حتى انه لم يذكر عنها اى شيء بمعاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (٣) . وهكذا وجد الاكراد انفسهم بالاخير مقسمين من الناحية السياسية بين عدة دول يتباينون عن اهلها عنصرا ولغة وتاريخا .

---

(١) - V. Minorsky, " Kurds " , Ency. of Islam

(٢) - Bletch, Chirbuh, La Question Kurde, ses origines et ses causes , p. 86

(٣) - Bletch, Chirbuh, p. 40 - 42 .

من هذه الدول التى تحوى على اقلية كردية ، دولة سوريا .
والاقلية الكردية التي نجدها فى هذا القطر تقسم الى قسمين . قسم استوطنها منذ القديم اىخلال العهد العثماني ـ واغلبيته قد تعرب بالعادات واللغة . وقسم نقلها رخلار ابان عهد الانتداب الفرنسي اثر الثورات التى قمعها الاتراك الكماليون بشدة وقساوة . لهذا ارى من المستحسن ان نتعرض لدراسة وضع كل من هذين القسمين على حدة .

ان دخول الاكراد الى هذه البلاد واستيطانهم للقسم الشمالي من سوريا وبالاخص منطقة الجزيرة العليا يرجع بتاريخه الى القرن الخامس عشر للميلاد . والظاهر ان السبب فى ذلك يعود الى الهجرات التى كان يقوم بها اولئك القوم طلبا للعشب وحياة السهول فى بعض فصول السنة . لكن القبائل العربية كانت دائما تحول دون استقرار اكثرهم فى هذه الربوع . وهكذا فان استيطان الاكراد فى سوريا لم يبدأ بشكل واسع الا فى نهاية القرن السادس عشر ، واستدام بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر (١) . ولقد تمت تلك الهجرات الواسعة فى الغالب تحت تاثير العوامل السياسية . فان رغبة الدولة العلية فى الافادة من خصائص الاكراد الحربية كانت السبب فى نقل بعض القبائل الكردية الى جهات معينة من الامبراطورية العثمانية . هذا فضلا عن انها كانت تبغي من وراء ذلك تبديد شمل الجماعات الكردية القاطنة فى كردستان (٢) .

ان العناصر الكردية التى تعيش اليوم فى القطر السورى موزعة على طول الحدود التركية ـ السورية فى ثلاثة مناطق تكاد ان تكون متصلة بعضها ببعض . وهي منطقة الجزيرة العليا ، منطقة الفرات ، والمنطقة المسماة بكرد داغ . وهنالك ايضا بعض الفئات الكردية فى دمشق وغيرها من المدن السورية .

اهم هذه المناطق الثلاث فى الوقت الحاضر هي منطقة الجزيرة العليا وذلك بسبب قدوم اللاجئين الجدد من تركيا وهى تمتد ما بين نهر الدجلة ونهر

---

(١) ـ P. Rondot , La France Méditéranéenne et Africaine , Fascicule I , p. 99

(٢) ـ P. Rondot, p. 100.

الخابور .واشهر العشائر الكردية الموجودة فيها هي " الاليان " و " الكوجر " و "المرسينية " و " المليه " ، وجميعها تتعاطى الزراعة وتسكن امكنتها الحالية منذ قديم الزمن . ومما يلفت النظر ان شيوخ هذه القبائل جميعا يدعون نسبهم الى اصل عربي صميم ويعتزون بهذه النسبة ، وقبائلهم لا تنكر عليهم هذه النسبة ولا تكون مقلقة ومزعزعة لرئاستهم ، بل على الضد من ذلك مثبتة ومؤكدة لهذه الرئاسة . من امثلة ذلك ان شيوخ المليه يدعون نسبهم الى بيت العبدى ويقولون ان هذا البيت فى الاصل من قبيلة " الرولا " ، كما ان شيوخ الكيكية يدعون انهم من بيت " الرستم " وهم بيت ينتمي الى الهاشميين (١) .

يتراوح عدد هؤلاء الاكراد بين الاربعين والخمسين الفا منالنفوس . وهذا التقدير قريب من الحقيقة ، ونضطر الى استعمال العدد التقريبي لعدم وجود احصاء رسمي . لقد كانت تلك القبائل الكردية حتى سنة ١٩٢٥ جميعها تدفع " الخوة " وهي بمثابة الجزية الى رؤساء عشيرة شمر ، ولكنسطوة الحكم الفرنسي قد منعت هذه العادة وانقذت الاكراد منها (٢) . وهم اليوم كما كانوا من قبل يحسون بضعة وعجز تجاه العرب ، فلا ينافسونهم مكانتهم الاجتماعية ، ولم تقم فى رؤوسهم فكرة التقدم على العرب وما يزالون يعتبرون انفسهم تبعا للعرب وحاشية لهم . لهذا كله لم يقم خصام عنصرى بين العرب والاتراك فى تلك المنطقة واغلب الاكراد هناك يسلكون طريق التعرب .

اما المنطقة الثانية ، وهي منطقة الفرات فتمتد من قضاء عين العرب حتى سروج ، ولقد كان اول من سكن هذه المنطقة من الاكراد فى القرن الثامن عشر ، البرازيون (٣) . هؤلاء يدعون لانفسهم اصلا عربيا . ولقد تعربوا بالفعل ، وهناك فئة منهم تعيش الان فى مدينة حماة . اما الان فان تلك المنطقة تسكنها عشائر شيخان، وكيتكان ، وعلاء الدين وبيجان ، وكثير من هذه العشائر قد امتزج بالقبائل العربية القاطنة حولها .

---

(١) — H. Lahham , p. 257 .

(٢) — من مقابلة مع جلال السيد

(٣) — H. Lahham, p. 258 .

والمنطقة الثالثة وهي منطقة كرد داغ او ما يدعوه البعض بجبال الاكراد ، تسكنها العشائر الكردية التالية ، العيكلى ، شككلي ، وطورو ، وكلها متحضرة تتعاطى الزراعة وتربية المواشي . ان اغلب هؤلاء قد تعربوا بعاداتهم وكثير منهم يتكلمون اللغة العربية .

وهنالك كما اسلفنا ، بعض الاكراد الذين يعيشون في المدن السورية كدمشق . لكن هؤلاء جميعا قد تعربوا الى درجة يصعب معها تمييزهم عن السكان الاصليين . ان جميع هؤلاء الاكراد الذين هاجروا الى سوريا منذ العهد العثماني ، يعيشون بسلام ووئام مع اخوانهم ابناء البلاد ، ولقد تعربت فئة كبيرة منهم ، ومن بقي على لغته وعادات اجداده فهو في طريق التعرب بفعل عامل الزمن وعامل الدين الذي يربطهم مع الاكثرية من سكان البلاد ، ثم عدم وجود دولة كردية يمكنهم ان يتجهوا بانظارهم اليها .

وهكذا فان اكراد سوريا القدماء كانوا دائما على وفاق وتفاهم مع ابناء البلاد العرب في خدمة الوطن المشترك ، ولم يظهروا اي نية او رغبة في الحكم الذاتي في تلك الامكنة التي يكونون الاغلبية من سكانها . غير ان السلطة المنتدبة كانت تحاول ان تعيق تمثيل هؤلاء الاكراد في المجموعة العربية ، وذلك بواسطة الدس بينهم وفتح ابواب الهجرة الى سورية امام اللاجئين من اكراد تركيا الذين سماهم النوريين .

اصبح من الامور الواضحة ان السياسة الفرنسية في سوريا كانت قائمة على تجزئة هذا القطر الى عدة دويلات بغية السيطرة عليها . وتبعا لذلك كان الفرنسيون ينهجون اي خطة من شانها ان تزيد في انقسام البلاد وتفككها . لهذا وقفوا موقف المرحب والمشجع من الهجرة التي قام بها اولئك الافراد المطرودون من تركيا ، حتى انهم في خلال عشر سنوات من سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٥ دخل الى هذا القطر من الاكراد المشردين ما يقارب ـ ٢٥٠٠٠ ـ الخمسة والعشرين الفا (١) . ولقد منحت السلطات هؤلاء المهاجرين الجنسية السورية بالاجماع دون اي اعتبار لمصلحة البلاد ،

---

(١) ـ P. Rondot , p. 99

(*)

وما كان هؤلاء الضيوف الجدد ان يستقروا حتى اخذوا يثيرون القلاقل والمشاكل ويعملون على فصل الجزيرة لتحقيق رغبة طردهم الاترانعن اجلها . وكان ذلك بمساعدة الفرنسيين الذين حاولوا سنة ١٩٣٦ ان ينظموا مضابط تتضمن طلب اهل الجزيرة نظاما خاصا او حكما لا مركزيا ، ليقدم هذا الطلب حال اجراء التفاوض بين الفرنسيين والوفد السورى . فقامت حركة معاكسة لهذه الرغبة وقسط الوطنيون واستشاروا هم القبائل العربية والكردية معا ونظموا مضابط بطلب الاتصال التام وشجبكل فكرة انفصالية ، وتاييد الوفد السوريوالاستقلال التام فى كل محتوياته . ففشل الفرنسيون ومعهم من الاكراد والاشوريين وغيرهم لانالمضابط الايجابية الوطنية قد ضمت اكثر من تسعين بالمئة من السكان (١) . وهكذا ترى كيف ان بعض الاكراد المهاجرين الى سوريا خانوا البلاد التى اوتهم ومنحتهم حق المواطنة ، وكان الاجدر بهم ان يتعظوا باخوانهم القدماء الذين عاشوا بملء الحرية متفاهمين مع ابناء سوريا ، وان يعلموا بان معونة الاجنبي لا تدوم .

يقول الدكتور حلمي اللحام فى رسالته عن مشكلة الاقليات فى سوريا بان وضعية العناصر الكردية فى سوريا تتطلب من الحكومة امرين : اولا ، ان تسحب الجنسية السورية من اولئك المهاجرين الذين عملوا على اثارة الفتن والاساءة الى البلاد ، لكن دون ان تضطرهم الى الرحيل عن البلاد . وان تجرى بحقهم مفعول قانون اكتساب الجنسية فيما اذا برهنوا عن اخلاصهم وتعاونهم فى المستقبل . ثانيا ، ان تسعى الى رفع مستوى القبائل الكردية وتحضيرها ، وان تساعد بالطرق الايجابية على اكمال تمثيلها من قبل المجموعة العربية (٢). ورغم ماجده فى هذين الحلين من الحق ، الا انني ارى بان مسالة سحب الجنسية لا داعي لها الان، هذا عدا عن انها ليست من الحلول الملائمة للظرف السياسي الحاضر .

٣ ـ الجركس : ـ يطلق هذا الاسم على تلك المجموعة من القبائل التى ترجع باصلها الى الجهة الغربية من القوقاس والى قسم منالشاطئ الشرقي للبحر الاسود . ان هذه القبائل التى كانت تسكن هذه الجهات ،

---

(١) ـ من مقابلة مع جلال السيد .

(٢) ـ H. Lahham , p . 30I .

قاومت بعنف مدة طويلة من الزمن حملات الروس المتتالية التي بدأها عليها بطرس الاكبر . وفي غضون حرب القرم قام الجراكسة بحركة ثورية ضد الروس ما لبثوا ان دحروا بعدها فكان الانتقام منهم شديدا للغاية حتى ان اغلبهم قد هاجر في تلك الاثناء . ولقد بلغ عدد المهاجرين منهم بين ١٨٦٤ - ١٨٧٨ اربعماية الف وزعهم الاتراك العثمانيون على مختلف انحاء الامبراطورية . فالتسورية منهم عددا وافرا (١) . ولم يكن تمركز الجراكسة في هذا القطر من الامور السهلة في بادئ الامر ، لان الدروز قاوموا ذلك التمركز الذي حصل بالقوة بمنهم بشدة وعناد ولم يذعنوا للامر الواقع الا بعد مضي سنين عديدة . (٢)

ان الجراكسة الذين يقطنون سورية في الوقت الحاضر يبلغ عددهم العشرين الفا تقريبا ، وهم موزعون كما يلي (٣) :

١ - حوالي ١٠٠٠ في جهات العلويين
٢ - = ٢٥٠٠ في جهة حلب خاصة في خناصر ومنبج
٣ - = ١٥٧٥٠ في دير الزور
٤ - = ١٥٠٠ منطقة حماة
٥ - حوالي ٣٥٥٠٠ في منطقة حمص
٦ - = = ١٥٥٠٠ = = دمشق
٧ - = ٩٩٠٠ في القنيطرة الى الجنوب الشرقي من دمشق
٨ - = ٦٠٠٠ حول القنيطرة في عدة قرى يسكنها الجراكسة .

يعتنق هؤلاء القوم الديانة الاسلامية ، وجميعهم من اتباع المذهب السني الا ما ندر من الشيعة . لذلك فهم من الناحية العقيدية ينتمون الى الاكثرية من السكان ، غير انهم يختلفون عن تلك الاكثرية من حيث العنصر واللغة والتاريخ . وهم حتى هذا اليوم يتكلمون لغتهم الخاصة فيما بينهم ويشكلون كتلا منعكفة على ذاتها اينما وجدوا .

كان الجراكسة في عهد الانتداب الفرنسي ينقسمون ازاء الحركة الوطنية في سوريا الى قسمين . قسم اظهر شعور الاخلاص والترابط تجاه الوطنيين المناضلين ، وعمدالى مساعدتهم

---

(١) - L. Massignon , Annuaire , p. 325 " No date "
(٢) - H. Lahham , p. 236
(٣) - H. Lahham , p. 237

بكل الوسائل دون ابطاء او ملل ، واغلبه من الافراد المسنين القدماء الذين لا زالوا يحفظون لهذه البلاد حسن وفادتها وضيافتها ، والذين ما زال العنصر الديني يطبعهم بطابعه . وهذه الفئة من الشراكسة تبدى رغبة شديدة فى التعرب لانها تعتقد ان مصيرها اصبح معلقا بمصير البلاد . اما القسم الاخر المكون باغلبيته من الشبيبة الناشئة ، فقد تعاون مع الاجنبي فى محاربة القضية الوطنية ، وكان يبدى نشاطا كبيرا فى بعض الاحيان لحمل السلطات على اعتبار الجراكسة اقلية عنصرية معترف لها ببعض الحقوق . ولقد ذكر الدكتور حلمي اللحام فى رسالته عن الاقليات فى سوريا بعض المطالب التى تقدم بها نفر من الجراكسة ابان الانتخابات التى جرت لايجاد المجلس التاسيسي نذكرها بالايجاز (١) .

١ = الاعتراف بحقوق الاقلية الجركسية وتمثيلها فى المجلس النيابي

٢ = جعل القنيطرة منطقة مستقلة لهم .

٣ = انشاء معهد ثقافي للشراكسة وتعليم اللغة الجركسية فى جميع المدارس الابتدائية فى جبلان ،

٤ = ان يكون للجراكسة حرية الرأى والاجتماع ، وكذلك ان تكون هنالك حرية تامة للصحافة الجركسية .

هذه هي بعض المطاليب الذاتية التى كانت ترددها بعض الفئات الجركسية مدفوعة بذلك من الفرنسيين الذين اتبعوا سياسة التفرقة لكي يتمكنوا من السيطرة على هذا القطر العربي ، ولقد حالت دون تحقيقها عقبات مختلفة اهمها انتشار هؤلاء القوم فى اماكن متعددة بعيدة عن بعضها البعض مما عقب هذا الاخفاق اخذ عدد الجراكسة الموالين للقضية الوطنية يزداد يوما بعد يوم خاصة بعد ان ادركوا بان الفرنسيين قد اركبوهم طريقا خطرا وانه لا يستبعد ان يتخلوا عنهم فى اى وقت من الاوقات .

فالحركات التى قام بها الجراكسة خلال عهد الانتداب كان الدافع لها عمال فرنسا فى سوريا . اما اليوم فهم لا يكونون اى خطر على كيان البلاد ، وذلك بشهادة اولى الامر (٢) ،

---

(١) — H. Lahham , p. 238 - 241

(٢) — من حديث مع سعد الله الجابرى ، وفارس الخورى .

وبدليل الاسباب التالية :

اولا - ان الجراكسة فى سوريا لا يزيدون عن العشرين الف شخص ، وهم مبعثرون فى جميع انحاء الوطن السورى . لذلك نجد انهم لا يكونون اى خطر من الناحية العددية .

ثانيا - ان القسم الغالب منهم يعتقدون بوجوب تعريبهم واندماجهم ضمن المجموع . وقد بدا هؤلاء بالفعل بتدريس ابنائهم اللغة العربية وبتوجيه ناشئتهم توجيها وطنيا .

ثالثا - ليس للجراكسة اى ادعاء تاريخي فى هذا القطر . وهجرتهم اليه واضحة اسبابها . هذا فضلا عن انها ترجع الى عهد قريب .

٤ - الاشوريون :- على الرغم من كل الادعاءات التى يظهرها الاشوريون المعاصرون ، فان انتسابهم الى الاشوريين القدماء الذين ازدهرت مملكتهم فى الهلال الخصيب فى القرن السابع قبل الميلاد لم يثبت بعد (١) . والذى نعلمه عن هؤلاء اليوم هو انهم كانوا فى القرن التاسع عشر يقطنون المنطقة الجبلية فى " هكارى " وبعضهم كان يسكن الجهة الشمالية من بلاد العجم . وكذلك كان هنالك فئة منهم تعيش فى روسيا (٢) . فلما اندلعت نيران الحرب العامة الاولى انحاز الاشوريون الذين كانوا تحت سلطة العثمانيين الى معسكر روسيا وحلفائها وجاهروا الاتراك علنا بالعداء . غير ان الاتراك تمكنوا من طردهم من الجبال التى اعتصموا بها ، فكان لا بد لهم والحالة هذه من الالتجاء الى مدينة اورميا من بلاد فارس التى كان يحتلها الروس آنذاك . وحينما نشبت الثورة البلشفية تحرج موقف الاشوريين الى درجة دفعتهم لان يبذلوا جهودا جبارة للالتحاق بالقوات البريطانية فى العراق (٣)

---

(١) E. Reclus , Nouvelle Geographie Universelle, t.9, p.4 & II

(٢) Les activités de la Société des Nations; l'Etablissement des Assyriens, Genève , I935, (Section d'information)p. 8

(٣) Marquis Théodoli ,Journal Officiel de la S.D.N. Dec.I932 p. I964 .

منذ ذلك الحين والاشوريون يعيشون فى العراق ، الى ان تمكن بعضهم من المهاجرة الى سوريا والاستيطان فى ربوعها . وليس من شاننا فى هذا الفصل ان نذكر شيئا عن مراحل القضية الاشورية فى القطر العراقي . بل نكتفى بان نشير الى ان ثورتهم على الحكومة العراقية قد انتهت بالتجاء عدد منهم الى سوريا ، وكان ذلك نتيجة لقرار عصبة الامم آنئذ (١).

احتجت البلاد فى ذلك الحين على ايوائهم فى سوريا ، غير ان الفرنسيين قد طاروا فرحا بقرار عصبة الامم هذا ولم يبالوا بالاحتجاجات ، لانهم كانوا ميالين الى حشد كل الاجناس فى منطقة الجزيرة لعلها يوما تدين لهم بالطاعة والخضوع . استقر هؤلاء الاشوريون على ضفتى نهر الخابور الاعلى بين الحسجة وراس العين ، فى مزارع بعضها ملك للدولة وبعضها اشترتها السلطات من الافراد ، واسست لهم ناحية سموها ناحية الخابور مركزها موقع تل التمر . وكان عددهم يتراوح ما بين ١٠ - ١٢ الفا فقط ، ويؤكد الخبيرون اليوم انه لم يبق من هؤلاء الاشوريين الا عدد يتراوح بين (٥ - ٦) الاف (٢) .

يدين هؤلاء القوم بالمذهب الارثوذكسي المسيحي وهم لا يزالون على طراز قبائل عصبية . منح الفرنسيون هذه الاقلية الجنسية السورية بالاجماع ، وذلك بعد مضي خمس سنوات على دخولها البلاد كانت تتمتع فى خلالها بجميع الحريات العامة والحقوق الخاصة التى يتمتع بها ابناء سوريا . وهكذا عملت فرنسا مرة اخرى على ادخال عناصر اجنبية الى هذا القطر بغية تنفيذ مآربها فى فصل الجزيرة واستثمارها الى الابد . لهذا لا غرابة ان يجد المرء هذه الاقلية تسعى جهدها لبقاء الانتداب الفرنسي وتثير الفتن بقصد فصل الجزيرة عن الوطن الام . وبزوال الانتداب قد زال الخطر من هذه الاقلية البسيطة التى يمكن للمرء ان يتكهن بانها لن تلبث طويلا قبل ان تذوب فى المجموع فيما اذا تمكنت الحكومة من اتباع سياسة رشيدة تجاه الاقليات .

---

(١) - Les Activités de la Société des Nations, l'Etablissement des Assyriens, Genève, 1935, (Section d'Information p. 26).

(٢) - من حديث مع جلال السيد

من كل ما تقدم يمكننا ان نستنتج امرين هامين :

١ - الاول هو ان هذا القطر العربي كان خاليا من العناصر الدخيلة عليه قبل عهد الانتداب الا ما كان من فلول ضئيلة من الاكراد والجركس وغيرهم ممن كانوا في طريق التعرب ، لا يشعرون باي وهي قومي مناوئ لشعور الاكثرية من السكان . بيد ان انحلال الامبراطورية العثمانية اثر الحرب العالمية الاولى وما جره من تشريد وهجرات لكثير من الاقوام التي كانت تعيش فيها ، ثم وجود فرنسا كدولة منتدبة في هذه البلاد تعمل لمصلحتها وبقائها ادى على مهر الايام الى دخول عناصر مختلفة الى ربوع سوريا واستيطان تلك العناصر فيها بحكم ما لاقته من تشجيع من السلطات المنتدبة التي كانت تعمل على اضعاف العنصر العربي في هذه الاصقاع ، ولئن تساءل المرء عن الاسباب التي دعت الفرنسيين الى منح تلك الاقوام الجنسية السورية بالسهولة المعهودة فانه لن يجد جوابا غير " الدافع الانساني " ذلك الدافع الذي لا يظهر تاثيره الا عند الشعوب الضعيفة التي لا تقدر المحافظة على كيانها . والا فكيف يفسر وجود فئات من الارمن والاشوريين في فرنسا ممن لا يزالون يحملون صفة اللاجئين دون ان تبيح لهم الحكومة الفرنسية حق التجنس بجنسيتها . (١) . فمما لا شك فيه ان فرنسا قد ارتكبت خطا بمنحها الجنسية السورية على ذلك الشكل الجماعي لاولئك الملتجئين - ولو انها قد فعلت ذلك نوعا ما - وفقا لما تم عليه الاتفاق في معاهدة لوزان او لما صدر من قرارات عن عصبة الامم (٢) . غير ان المستتبع لسياستها في هذه البلاد لا يجد غرابة في هذا الفعل . لانها كما اسلفت كانت ترمي الى تجزئة القطر السوري وخلق النعرات الانفصالية بين ابنائه . اذ انها لم تكتف بادخال تلك العناصر الى سوريا بل كانت تعمل ما في وسعها على الدوام لبعث النعرات الانفصالية بينهم وخلق مشكلة عنصرية يحدق خطرها على كيان البلاد ، فيكون ذلك سببا دائما لتدخلها وتسلطها .

---

(١) - H. Lahham , p. 317 .

(٢) - Treaty of Lauzanne, Article 37 - 45 , & Permanent Mandates Commission, Minutes of the Twenty seventh Session (1935) p. 209 .

٢ = اما الامر الثاني فهو ان الاقليات العنصرية الموجودة حاليا في سوريا لا تشكل خطرا كبيرا على مستقبل البلاد ، كما تشكل بعض الاقليات الموجودة في دول اوروبا الوسطى مثلا خطرا على الدول التابعة لها . وان زوال الانتداب وحده كاف لان يحل مشكلة الاقليات العنصرية في سوريا الى حد بعيد ، اذ انه لن يوجد بعد اليوم من يحرك تلك الاقليات ويثير بينها الدسائس لحملها على مناوئة القومية العربية والتخوف منها .

وهنالك اسباب اخرى تدعو الى التفاؤل بالنسبة لهذه المشكلة ، والى استبعاد خطرها الوهمي الذى يسيطر على بعض النفوس .

١ — ان عدد بعض الاقليات لا يتجاوز البضعة الاف وهم مبعثرون هنا وهناك في ارجاء البلاد .

٢ — توجد فئة كبيرة بين تلك العناصر ممن تجمعها رابطة الدين مع السكان . وهذا امر له تاثيره ومفعوله .

٣ — اما الاقلية الارمنية ، وهي اكبر الاقليات ، فقد بينا فيما سبق الطريقة لحلها .

وعلى كل فان كلمة خطر لا حدود لها . واذا بقيت سوريا من الضعف الكياني على الحال التي هي عليه الان فان مجرد وجودهم في البلاد يكون خطرا . اما لو صارت البلاد قوية فانهم يصبحون اضعف من ان يؤلفوا شيئا يلفت النظر . وان موقف الحكم الوطني ويقظته هو الذى سيحدد هذه المعاني ويجيب عليها . وما نعلم ان مقدارا ضئيلا من الاقليات في مملكة من ممالك العالم كونت خطرا على تلك الممالك ما دامت في حال الحيوية والنشاط . وكل ميكروب يدخل جسما نشيطا صحيحا مصيره الموت . اما الميكروب الذى يدخل في جسم هزيل يعاني سكرات الموت فانه يستحوذ على هذا الجسد ويتحكم فيه ثم يهلكه .

وما ندرى اى التوعين من الاجساد ستكون هذه البلاد ..

" اننا لا نعترف بحق اى طبقة من الناس مهما كان نوع تلك الطبقة
فى قيادة مقدراعلامة ضد ارادة الشعب " .
غلادستون

مشكلة الطبقات

من ظواهر المجتمعات الانسانية الراقية انقسامها الى طبقات تتفاوت فى اساليب العيش وتتمايز من حيث النفوذ والسلطان . فالمشكلة الطبقية ليست من خصائص بعض المجتمعات دون الاخرى ، بل هي مشكلة ازلية عرفها الانسان منذ اقدم العصور والسبب فى ذلك يرجع الى تفاعل عاملين اساسيين : العامل الاقتصادى والعامل السياسي . قال موسكا :
" ان الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي ان المجتمعات البشرية كانت دائما منقسمة الى طبقتين ، طبقة حاكمة وطبقة محكومة "(١) . ومما لا ريب فيه ان الطبقات الحاكمة خلال التاريخ التي توصلت الى مركزها بفضل تفوقها الاقتصادى او السياسي ، كانت تعمل على الدوام للمحافظة على كيانها بشتى الاساليب فكان ذلك سببا لنشوء الصراع الطبقي الذى يعد من المشاكل الاساسية فى حياة الامم كافة . والذى يلاحظ تطور هذه الظاهرة الاجتماعية يجد انها فى حركة دائمة مستمرة . فالتاريخ يدلنا على ان الطبقات الارستقراطية الحاكمة كانت فى تغير دائم وفقا للتبدل الذى يحدث فى نظم الحياة الاقتصادية . والسياسة الناجمة عن تقدم المعارف والعلوم . فالنظام الملكي المستبد الذى عرفته الامم فى القرون الغابرة قد زال لانه لم يعد يتكيف مع ما وصل اليه الانسان من تفتح عقلي ، واصبح المبدا السائد عند الشعوب فى هذه الاونة من التاريخ مبدا الحرية والمساواة الذى لا يمكن ان يقوم بدونه نظام ديموقراطي صحيح . وانه لمن دواعي العجب ان يشاهد المرء حتى اليوم اما تمتع النظام الديموقراطي من الناحية الدستورية وهي لا تزال على حالها الاجتماعي الذى ورثته عن عهود استبدادية لها خصائصها ومميزاتها . لان فى مثل هذا الامر مخالفة صريحة لقانون التطور والنشوء ، وعلاوة عن ذلك فهو امر شاذ لا بد ان يزول بفعل الصراع الدموى والثورات ان ظل متحجرا جامدا لا ينسجم مع محيطه المادى والمعنوى . اذ كيف تظل الحقوق ثابتة وكل شيء يتغير فى اطرافها تغيرا يجعل تطبيقها امرا مستحيلا . فالتوافق والتلاءم بين النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية امر لا غنى عنه

---

(١) - GAETANO, Mosca, The Ruling Class , p. 50

لكل الامم الديموقراطية . ومن متطلبات هذا الانسجام المحافظة على التوازن بين عناصر المجتمع وعدم ترويج عنصر على حساب العناصر الاخرى (١).

انما يشكو منه المجتمع السوري هو انعدام هذا التوازن بين عناصره المختلفة وعدم تطوره تطورا يتلاءم مع النظام السياسي القائم مما يجعل هذا النظام فاسدا بعيدا عن الصلاح . وسنسعى الان الى توضيح هذه المسألة في العرض التالي لمشكلة الطبقات في سوريا .

ينقسم المجتمع السوري اليوم الى ثلاث طبقات رئيسية يتباين بعضها عن البعض الاخر في حالته الاقتصادية ثم في مدى نفوذه السياسي والاجتماعي . فهنالك الطبقة الارستقراطية التي تتالف من الملاكين الاقطاعيين ، ثم الطبقة البرجوازية الوسطى ، واخيرا طبقة العمال . ولقد نشأت هذه الطبقات في ظروف مختلفة من تاريخ سوريا وتحت تاثير عوامل متعددة متغايرة .

١ ـ الطبقة الارستقراطية :

ان هذه الطبقة التي ترتكز اهميتها الان على ما تملكه من الاراضي الشاسعة الغنية هي من البقايا المنحلة للطبقات الارستقراطية التي عرفتها سوريا في مختلف عهودها بعد الفتح الاسلامي . فلا بد والحالة هذه من القاء نظرة عجلى على الحركة التطورية التي اختصتها هذه الطبقة اثر ذلك الفتح لمعرفة الاسباب التي ادت الى نشوئها وتبلورها على الشكل الذي نشاهده في الوقت الحاضر .

جاء الدين الاسلامي في جوهره داعيا الى المساواة بين الناس منددا بالفوارق الاجتماعية معتبرا ان التفاضل بين بني البشر لا يقوم الا على مواهبهم وفضائلهم . فالقرآن يقول : " انما المؤمنون اخوة " " وان اكرمكم عند الله اتقاكم " . ولم نجد في القرآن اية واحدة ترفع بيتا في العرب او تخفض بيتا ، او تقر لفئة من الناس حقوقا وامتيازات دون فئة . والنبي محمد علاوة على انه كان دائما يبشر بالتساوي بين الناس فان اعماله شاهد على لا يرد على انه كان يقيس الناس بمقياس كفاءتهم واخلاصهم ولا ينظر الى انسابهم ولا يجدها تغني عن الفضيلة اي غناء . ثم جاء الخلفاء الراشدون بعده فمضوا على سننه في المساواة . الا ان الديوان الذي انشأه عمر بن الخطاب والذي كان يوزع بموجبه مال بيت المسلمين على الناس تبعا لقاعدة التفاضل

---

(١) ـ غوستاف لوبون " روح السياسة " ص ٢١٤

اذ يدفع مثلا لعائشة اكثر من غيرها ويخص اقرباء النبي ايضا بقسط اكبر من سواهم كان له اثر فيما ادعته طبقة الاشراف من حقوق خاصة ابان العصر العباسي . ثم جاء عثمان بن عفان والامويون فتعصبوا لانسبائهم وافدقوا عليهم الاموال واثروهم بالكثير من المناصب ولكنهم لم يتجاوزوا هذه المحاباة التي يقع مثلها من الطبقة الحاكمة في كل مكان وفي كل زمان الى القول بان بني امية مثلا فوق الناس لا يحاكمون امام القضاة ولا يجرى عليهم الولاة الحدود ولا يقبلون ان يختلط احد منهم بالناس (١) .

اما في العهد العباسي فقد اختلف الامر اذ ظهرت فيه طبقة خاصة تسمى " الاشراف " تدعي لنفسها حقوقا ليست لغيرها من الاحرار وفي مقدمتها حقها بسهم من بيت المال المسمى . وهذه الطبقة هي نتيجة مباشرة لمجيء الاسلام الذي اوجد نوعا من شرف الدم لا يزال باقيا على عصرنا هذا ، وذلك في قرابة النبي او بني هاشم او اهل بيت الرسول (٢). ان هذه الطبقة لم تظهر بصورة واضحة كما اسلفنا الا في العصر العباسي حين استطاعت بفضل انتمائها الى مؤسس الدين الاسلامي والى الاسر الحاكمة او المستشرفة للحكم ولما تتمتع به في نظر الجمهور المتدين من توقير وتعظيم ان تحمل الخلافة على التسليم لها بامتيازات وحقوق غير قليلة . فكان لها قضاء مستقل بها يتولاه نقيبها الذي يعينه الخليفة ، وكان لها نقيب لا في بغداد فحسب بل في جميع المدن الكبرى (٣) .

يقول الدكتور منير العجلاني في " ان نظام " نقابة الاشراف" في العهد العباسي يشبه نظام النبالة الاوربي القديم . ولكن هذا الشبه يقف عند حد ، وذلك ان النبالة تعني كانت تعني دائما الطغيان بينما " الاشراف " عندنا كانوا يدعون الى معاملة الناس احسن معاملة ولا يعتدون على حق احد باسم الشرف كما كان يعتدى على الناس باسم النبالة " (٤) .

ولا تزال نقابة الاشراف قائمة في سوريا حتى اليوم ، ولكنها ردت الى اضيق معانيها والافضل ان نقول انها الغيت . فليس للنقيب شيء من الحقوق التي كان يتمتع بها امثاله في الماضي بل يقتصر مكانته في الوقت الحاضر على انها تمثل منصبا رمزيا كما ان الشرفاء لم يعد لهم شيء من الامتيازات وهم على الغالب غير متعارفين . ثم ان نسبهم لم يعد محققا لكثرة ما طرا عليه من الغموض الناتج عن زيادة عددهم على مر الايام .

---

(١) ـ منير العجلاني : طبقات المجتمع الاسلامي ، ص .

(٢) R. Levy, Sociology of Islam, V.I. p. 80

(٣) ـ ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري ج ١ ، ص ٢٥٠

(٤) ـ منير العجلاني ، ، ص ١١ و ١٢ .

هؤلاء الاشراف الذين تحدروا من عهود الحكم العربي في سوريا اصبحوا الان ضعيفي النفوذ بسبب زوال تاثير العامل الديني من النفوس. ولعل الاقلية الضئيلة منهم التي تحتل حتى هذا التاريخ مكانا اجتماعيا لائقا ونفوذا سياسيا مرموقا انما تحتله بلا بفضل انتمائها الى فئة الاقطاعيين اى بفضل الثروة المادية التي تسندها وتحفظ كيانها من التدهور والانحلال .

اما الفئة الاقطاعية فنستطيع ان نرجع تكوينها الى اوائل الفتح الاسلامي . فان كثيرا من القادة والزعماء الفاتحين قد اقتنوا الضياع والقرى الكثيرة ووضعوا فيها العبيد والموالي يفلحونها لحساب هؤلاء السادة ، ولم يكن التشريع الاسلامي يمنع مثل هذه التصرفات وان كان يحث على عتق الرقيق ويسهل هذا العتق (١) . ويمكننا جريا على هذا الاتجاه ان نعلم بان الدول المتعاقبة على سوريه من عهد الخلفاء الراشدين حتى العثمانيين قد يسرت لبعض الافراد الحصول على ملكيات واسعة كان الفلاحون فيها بحكم حاجتهم الاقتصادية انذاك كالعبيد ان لم يكونوا عبيدا وخداما لارباب الاراضي التي كان يعيشون من فلاحتها وزراعتها . بيد ان الاقطاعات في العهود الاسلامية الاولى كانت مقتصرة على حق التصرف فقط . فالرقابة ظلت دائما تابعة لبيت مال المسلمين وكانت العادة ان تجبى من هذه الاقطاعات اموال الخراج ثم تفرق من الديوان على الافراد والعمال والاجناد حسب مقاديرهم ورتبهم (٢) . ولم تنشأ الاقطاعية الشبيهة بما عرفته اوروبا في القرون الوسطى في هذه البلاد الا عقب تفكك الامبراطورية العباسية وتسلط الاعاجم على مختلف الاقطار . واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين . فالسلجوقيون قد تركوا في حياة سوريا اثرا كان له تاثير كبير على حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية وذلك بتقسيمهم البلاد اقطاعيا على اصول الزعامة " Système Féodale " بين امراء اسرتهم ومريديهم . وفنذ ذلك الحين اخذ النظام الاقطاعي يزداد انتشارا في هذه الربوع لما وجده من التشجيع عند من تعاقب على حكم سوريه من صليبيين فمماليك فعثمانيين (٣) .

ولما كانت الدولة العثمانية اخر من حكم بين هؤلاء فانها قد وضعت النظام الاقطاعي وضعا جديدا (٤) . وقررته في شكله النهائي . ولقد كان ارباب الاقطاع في

---

(١) — R. Levy , V.I. p. II7

(٢) — كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ص ٦٨ .

(٣) — علي عبد العزيز الحسن ، تاريخ سوريا الاقتصادي ، ص

(٤) — يجب ان نلاحظ دائما بان استعمالنا لكلمة "اقطاعي" على انها مرادفة لكلمة "Féodale" الفرنسية هي خطا شائع فالنظام الاقطاعي العربي لم يوجد خلال التاريخ الاسلامي وانما وجد ما هو شبيه له . ولتوضيح هذا الامر راجع سلسلة الابحاث الاجتماعية الخلفة الرابعة كانون الاول ١٩٤٥ (مقالة الاستاذ نور الدين زين عن الاقطاعية في عهد مماليك مصر) .

في العهد العثماني يؤلفون الطبقة الأستقراطية فعليا دون ان يشكلوا فئة من الناس معترفا لها قانونيا ببعض الحقوق والامتيازات ، كما كان شان الطبقة الاقطاعية في اوربا ابان القرون الوسطى . فالشرع الاسلامي المشبع بروح الاخوة والمساواة كان دائما الحائل الاكبر دون التحديد الطبقي على اساس القانون .

ان الاقطاعيين في سوريا ليسوا عربا في اصلهم الاقليلا منهم وانما هم من الاقليات العنصرية المتدينة بالاسلام . واذا رحنا نطبق ميزات هذه العملية بالاحصاء والتتبع يظهر لنا هذا الامر بوضوح تام ونتاكد بان القاعدة قاعدة لا تحتمل الشك والالتباس. ومن المعلوم ان هذه الفئات لم تكن من السكان الاصليين . وانما اتت بها الوظائف او ابواب الاسترزاق . فهاجرت من مواطنها بغية الانتفاع والاثراء . ففي احيان كثيرة كان الحكام والولاة العثمانيون يتقلبون الى اقطاعيين بعد انفصالهم عن الوظائف اذ يقتنون الاملاك خلال قيامهم باعمالهم الرسمية . وعلى هذا فان كبار الملاكين السوريين اليوم هم اجمالا ورثة واحفاد هؤلاء الاقطاعيين الذين اشرنا اليهم . وقد ورثوا عنهم كذلك الانعزال المعنوي وعدم الاهتمام بمصير الشعب الذي يعيشون بين ظهرانيه اهتماما صادرا عن اعماق القلوب .

وقبل ان ندلل على صحة هذا القول بكلمة موجزة عن الوضع الحالي لهذه الطبقة يجدر بنا ان نذكر عنها بعض الشيء خلال عهد الانتداب. لما كان افراد هذه الطبقة هم المتنورون المثقفون على الغالب بافضل ما تيسر لهم من امكانيات الدرس فقد اصبحوا عرضة للتفاعل بتيارات الحرية . وكان من الطبيعي ان نجد بعضهم اول المعارضين في الاحتلال الفرنسي الذي اخذ هو ايضا يخاصمهم ويضغط عليهم . فجعلهم موضع عطف الشعب ورضاه حتى تكون حولهم هالات من التقديس ومنحوا الزعامة الوطنية فوق النفوذ المالي والوجاهة التقليدية . ولا بد من الاستدراك في هذا الصدد فان الضغط الذي حصل على هذه الطبقة ابان عهد الانتداب لم يتناول الطبقة بحد ذاتها ولم يحاول القضاء على ما تتمتع به من امتيازات وراثية بل تناول بعض افرادها الذين ناصبوا الفرنسيين العداء . فكان ذلك سببا كما اسلفت الى تمكين نفوذ هذه الطبقة بين الاوساط الشعبية والى احلالها مركزا مرموقا محاطا بالاجلال والاحترام .

ان اهمية هذه الطبقة اليوم التي لازال البعض يسميها تجوزا بالطبقة الاقطاعية قائمة على اساس ما تملكه من الاراضي الواسعة . فالملكيات الكبيرة امر طبيعي في سوريا والاحصاءات الاخيرة تدل على ان ٤٩ في المئة من مجموع الاراضي المسوحة والتي تكون اربعين في المئة من اراضي البلاد

اذا استثنينا البقع الصحراوية هي ملك لهؤلاء الاقطاعيين (١) . وفضل ذلك وما ينجم عنه من السيطرة على مجموعة كبيرة من الفلاحين المواطنين يتمكن الملاكون الكبار من المحافظة على نفوذهم السياسي . لان الفلاح المعدم الذي يعتمد في معيشته وسكناه على سيد الارض لا يستطيع ان يخالف ارادة هذا الاخير في الاقتراع ايام الانتخابات للمجلس النيابي . وهكذا نجد ان الاغلبية الساحقة (٨٥ في المئة) من اعضاء البرلمان السوري هم من ابناء هذه الطبقة العليا (٢) . وعلاوة على ذلك فان العدد الاكبر من مناصب الدولة المهمة هو في ايديهم كما كان شأنه في غابر الايام . واذا صح قول البعض بان هذه الطبقة قد فقدت نفوذها السابق بفضل ظهور الطبقة الوسطى في الميدان وبفعل تكتل الطبقة العاملة فان ذلك لا يعني انها اصبحت ثانوية من حيث المكانة السياسية والاجتماعية ، لان لهذه الطبقة التي اليوم طابعها الخاص وهي السيطرة تقريبا على جهاز الحكم وتتصل بين افرادها تعاطف قوي مبني على اساس المصلحة والقربى . ولا شك في انها من الناحية الشكلية على الاقل تعرف كيف تحكم وتمثل هيبة الحكومة اكثر من سواها من الطبقات .

٢ ـ الطبقة البورجوازية ـ

هذه الطبقة هي حديثة العهد من حيث الاهمية الاجتماعية والسياسية في سوريه . ولعل السبب في ذلك يعود الى التأخر الاقتصادي والثقافي الذي كانت تتصف به البلاد الى وقت قريب . فالصناعات الحديثة لم تدخل اليها الا منذ ربع قرن تقريبا والتجارة وامور الصيرفة المحدودة كانت في الماضي من اختصاص الطوائف غير المسلمة ، ينظر اليها المسلمون نظرة سخرية واحتقار ، كما كان شأن النبلاء في القرون الغابرة في اوربا . وفضلا عن ذلك فان شيوع الامية وتفشي الجهل بين ابناء الحرف الصغيرة والموظفين وملاكي المدن الصغار الذين تتكون منهم الفئة المتوسطة الحال من هذه الطبقة ادى الى انعدام اهميتها ثم الى بقائها جامدة تعيش على هامش حياة سوريه السياسية .

لكن الاحوال الاقتصادية الحديثة وما جرته بذيلها من نشاط صناعي وتجاري جعل المسلمين من ابناء هذه الطبقة ينزعون عن انفسهم ذلك الخمول الموروث ويدخلون تباعا في ميدان التجارة والصناعة . ثم ان انتشار المدارس وعدنمو الحركة الثقافية في هذه الربوع

---

(١) Statistiques Diverses, publié par " le Service Technique du Cadastre et d'Amélioration Foncière, p. IO, II.

(٢) راجع ملحق هذا الفصل للتفصيل .

اثر الحرب العالمية الاولى خلق نشأ جديدا واعيا عندها ، فاخذت بذلك تزداد اهميتها وبدات تنازع الطبقة الارستقراطية نفوذها في حكم البلاد . ولتباين هذا الامر نشير الى الدور الكبير الذي لعبته الفئة الغنية من هذه الطبقة ابان الانتخابات الاخيرة (١٩٤٣) التي حدثت في سوريا (١) . هذا عدا عن تاثيرها الواضح وغير المباشر في مجرى حياة هذا القطر السياسية الذي بلغ حدا واسعا في هذه الايام . وذلك لانها بدات تشعر بان مصالحها تقتضي تدخلها في شؤون السياسة ، لاجل دعمها بالقوة والنفوذ وترويجها بشكل يضمن لها النمو والازدهار . ولا شك انه بوسع هذه الفئة المثرية ـ ان تكاثر عدد افرادها في المستقبل ـ ان تسير امور الدولة طبقا لرغائبها . كما هو الحال عند اغلب الدول الاوروبية بفضل ما تبذله من الاموال في هذا السبيل .

ولا تقتصر اهمية الطبقة البرجوازية على الدور الذي اخذت تلعبه الفئة الغنية العالية منها ، بل هنالك تفتح جديد ونشاط فعلي بدا يظهر عند الفئات المتوسطة من افراد هذه الطبقة واعني بهم الملاكين والموظفين الصغار ثم اصحاب المهن المختلفة من اطباء ومهندسين ومحامين الذين يسلكون طريق المهنة للتعيش والارتزاق . ان عدد هؤلاء يزداد يوما بعد يوم . ولا نغالي اذا قلنا بان التوجيه القومي الصحيح يتوقف على نموهم وتكاثر عددهم في هذه البلاد ، وعلى ذلك ايضا يتوقف تقدم البلاد السياسي من الناحية الديموقراطية . يقول الدكتور ادمون رباط : " في اليوم الذي يصبح لدى سوريه طبقة وسطى واعية ومنظمة ، عندئذ تكون قد حققت انسجامها السياسي ، وثبتت دعائم مجتمعها على اسس راسخة متينة ، يمكن ان يقوم عليها مستقبل شعبها المتجدد الوثاب . لانه في حقل هذه الطبقة المركب تنبت بذور الزعامة الحقة التي تستوحيها الامة في تطورها وتقدمها " (٢) .

على الرغم من كل ما تقدم فانه ليس بامكاننا ان نقول سوى ان هذه الطبقة لا زالت تشق طريقها في حياة هذا القطر السياسية والاجتماعية . فهي حتى يومنا هذا في دور النشوء لا نستطيع ان نعزو اليها نتيجة كبيرة ، ولا ان نقول بان لها وزنا عاليا في تسيير شؤون البلاد ولعل اوضح برهان على صحة ما نرمي اليه هو ان هذه الفئة لا يمثلها اليوم الا عدد ضئيل جدا

---

(١) ـ لقد ظهر اثر هذه الفئة المثرية في الانتخابات التي حدثت سنة ١٩٤٣ بشكل واضح . اذ لعبت اموالها في الميدان وكانت السبب المباشر والوحيد لخروج بعض افرادها ظافرين من معركة الانتخابات . وكانت الاموال تبذل لشراء اصوات الناخبين ولاقامة الحفلات الانتخابية الكبرى .

(٢) ـ E.Rabbath, Revue Internationale de Sociologie, p. 509

فى البرلمان وعلاوة على ذلك فان عددا كبيرا من افرادها المثقفين حملة الشهادات يحيون حياة البطالة لان ابواب لوظائف اللائقة بمستواهم العلمي هي على الغالب موصدة فى وجوههم لا يلجها الا اصحاب الثروات الطائلة والجاه التليد . وما دامت الاوضاع على هذا المنوال فان الزمن الذى ستحتل به الطبقة الوسطى مكانها تبعا للمفهوم الغربي لهو زمن بعيد ويخشى البعض ان تتدفق الموجات الشيوعية قبل حدوث هذا الامر . فالعامل السياسي الخارجي بدا يتضافر مع العامل الاقتصادى الداخلي لبث الفكرة الشيوعية والمصير مجهول لانه تابع فى معرفته الى ما يجد من الحالات والى التطور السريع او البطيء .

٣ - الطبقة العاملة :-

ان التفاوت المادى والمعنوى بين ابناء هذه الطبقة وابناء الطبقتين السالفتي الذكر واضح لا يحتاج الى تبيان . فهم يدائيون فى طرق عيشهم . والمدنية الاوروبية التي عمت مظاهرها فى الطبقات الاخرى لا تزال على الغالب بعيدة عن روحهم ومشاعرهم هذا فضلا عن الامية والجهل المنتشرين بين صفوفهم انتشارا مؤلما يدعو الى الشفقة والعطف . وتظهر هذه الميزات عند قسم كبير من ابناء هذه الطبقة اكثر من ظهورها عند القسم الاخر الذى يسكن المدن . وذلك لان عمال المدن معرضون الى حد اكبر لتاثير المدنية الغربية التي بدات اثارها تبرز بينهم واصبح المرء الان يلمس عندهم نوعا من الوعي الطبقي المنعكس فى التنظيم النقابي بغية الترفيه عن احوالهم والسعي لتامين مصالحهم وحاجاتهم .

ان الطبقة العاملة لم يكن لها مدى تاثير فى حياة هذا القطر العامة من قبل وذلك امر طبيعي لان هذه الطبقة لا تكون الا جوابا لحادث . وهذا الحادث هو الصناعة الكبرى التى اخذت تمد راسها فى سوريا وتحدث هذه التجمعات العاملة التي تكون نواة البروليتارية فى هذه البلاد . ففي الماضي كان التنظيم النقابي ضعيفا لا يقوم على اسس حديثة . فكان اكثر اصحاب الحرف من قصابين وحلاقين وصناع احذية يجتمعون فى شكل هيئات بسيطة بعيدة عن مداخلات الحكومة . وكانت غاية تلك الهيئات النظر فى شؤون الحرفة تبعا للعرف الشائع لا الى قوانين موضوعة ثابتة . ومع ان بقايا هذه

التشكيلات البدائية ما تزال معمولا بها عند بعض اصحاب الحرف ، فان التنظيم الجديد القائم على اسس حديثة اخذ ينتشر عند البعض الاخر ، مثال ذلك ما نجده عند نقابات سائقي السيارات وعمال الريجي وغيرها من الشركات الاجنبية والوطنية . وهكذا فان روح التعاضد والترابط بين عمال سوريا تزداد رسوخا وفعالية يوما بعد يوم ، ولا شك بان هذا الشعور الطبقي سوف يؤول في النهاية الى تحسين حالة العمال التي اهملت وتغاضى عنها المسؤولون حتى هذا التاريخ . ولقد بدات تظهر قوتهم النضالية بشكل قوى محسوس ، في الاضرابات المتوالية التي اخذوا ينظموها لاجل تحقيق مطالبهم وانتزاع حقوقهم المهضومة .

ان تحرك العمال في هذا القطر الظاهر في هذا الوعي الطبقي المتزايد في نفوسهم ناشيء عن تفاعل عاملين اساسيين اولهما تقدم الصناعة القائمة على رؤوس الاموال الخاصة والتي من شانها ان تحدث تصادما وخلافا بين اصحاب الاموال وعمالهم بفضل الحرص الزائد على الكسب وهضم حقوق الاخرين ، — وثانيهما " العدوى " فان الطبقة العاملة في سوريا كثيرا ما تتصرف تصرفا غير ناتج عن حاجاتها الخاصة كما هي القاعدة في كل تصرفات الافراد والجماعات . ولا عجب فان هناك احوالا مشابهة في بلدان اخرى وقد اصبح العالم كله عبارة عن مملكة واحدة بعد هذا الاتصال والتشابك ، فما يجري في بلد يجري مثيله في البلدان الاخرى ، وطبقة العمال التي بدات تتكون لا بد وان تختار بالعقل والوعي اعلى الخطط الطبقية في العالم لتامين مصالحها ، وستعمل جهدها لتطبيق هذه الخطط وحمل الحكومة على اقرارها مهددة بمعاكسات شتى ، كالمعاكسات التي يقوم بها العمال العالميون — في حال رفض مطالبهم والنزول على رغباتها . وبمعنى اخر فان حكم العقل في هذه المرة سوف يكون قبل حكم النفس وجدير بالذكر ان الحكومات في سوريا لم تلتفت الى معالجة قضية العمال بدقة ودراية ، منذ عهد الانتداب حتى اليوم ، وكل ما سن من قوانين لهذه الغاية كان يتناول امورا بسيطة كتحديد ساعات العمل وضغط حفظ النساء العاملات والاولاد من المتاعب الشاقة ثم امورا اخرى تتعلق بالتعويضات والاجور ، وكثيرا ما كانت هذه القوانين الصفونة بحد ذاتها لا تطبق امام عناد المتنفذين من اصحاب رؤوس الاموال الذين يسيرون الحكومة حسب اطماعهم ومآربهم دون ان تجسر على سن تشريع يحد من هذه المطامع ويحقق العدالة للطرفين .

ان قضية العمال في سوريا ما زالت تنتظر الحل الناجح . وبوسع اي حكومة رشيدة ان تسن تشريعا شاملا تحدد به اوقات العمل واجور العمال ثم نسبة الارباح لراس المال المستغل وتؤمن به عيش العامل في حال العجز والمرض والوفاة . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتلافي الاخطار

المكن وقوعها فيما اذا بقيت هذه الفئة الكبيرة من السكان ترزح تحت نير الاستعمار الذى لا يعرف الحدود ، وتقاسي طغيان الطبقات المستثمرة الغنية . غير ان عملا كهذا يجب لا يحل الا مشكلة قسم ضئيل من الـ طبقة العمال ، ذلك القسم الذى عمد بفضل تنظيمه الى المطالبة بحقوقه والنضال فى سبيلها . اما القسم الاكبر والذى ندعوه " الفلاحين " فسيظل على حالة البؤس والشقاء التي هو عليها ما لم تندفع الحكومة من تلقاء نفسها الى حفظ حقوقه تجاه اصحاب الاملاك الذين ما فتئوا يعاملونه معاملة قاسية لا تعرف الرحمة وينظرون اليه كآلة للانتاج لا غير .

ان الفلاح السورى ما زال بعيدا عن تلك التغييرات التى حدثت عند العمال فى المدن . فالوعي الطبقي المنعكس فى الشعور الموحد والتنظيم لاجل الدفاع عن حقوق الطبقة لم يدب فى روحه بعد ، وهو ما زال يعمل طوال السنة بلاانقطاع لكي يحصل على حاجاته الاولية الزهيدة . ومما لا ريب فيه ان محيط الفاقد الامن والنظام الزراعي الجائر الذى يخضع له هما السبب فى وضعه المادى والروحي الذى يدعو الى الحزن والاشفاق . فهو ابدا عرضة لاطماع الاقطاعيين الذين يغتصبون حقوقه كلما سنحت لهم الفرصة وسكتتهم الظروف . ثم ان الحكومة تزيد فى شقائه بما تفرضه عليه من الضرائب الباهظة التي تجبى بطرق لا تعرف الرفة واللين . زد على ذلك ما يلاقيه فى اوقات كثيرة من قبائل البدو التى تعمل على نهب محصولاته دون ان تلتفت الحكومة الى مساعدته فى ردع اولئك الاشقياء . والذى يزيد فى شدة هذه الحال هو انه كثيرا ما يعمد اسياد الارض الى الاخلال باتفاقاتهم مع الفلاحين، وهم على الغالب يقالون مساعدة الحكومة فى هذا الصدد ، فيكون ذلك واسطة لهضم حقوق تلك الطبقة الفقيرة وسببا لحمل ابنائها على القيام باعمال النهب والاحتيال .

من هنا ينشأ الحقد والكره الذى يحمله الفلاح لصاحب الارض وللحكومة على السواء . ولعل هذا هو السلاح الوحيد الذى يملكه تجاه من يسومونه مر العذاب لان الدفاع الجماعي المنظم عن حقوقه ما انفك معدوما ، اذ ليس هناك من نقابات او جمعيات تقيد تعمل على تنظيم شؤون الفلاحين وتناضل فى سبيل تحريرهم من هذا الوضع المؤلم الذى يعرضهم لشتى ضروب الاضطهاد .

ان التفاوت البعيد عن العدالة فى امتلاك الارض وهذا الجهل المظلم الذى يحيم ابناء القرى والحقول ثم الغفلة التي تبديها الحكومة بالنسبة الى احوالهم المحزنة واوضاعهم الشاذة كل هذه الامور هي السبب فى ما يلمسه المرء من تعاسة وجمود فى الاوساط الريفية فى هذه الربوع .

فاذا اضيفت هذه المعضلة الى ما نجده من انحطاط لحقوق العمال في المدينة نلاحظ بان هنالك ارضا خصبة في هذا القطر لنمو الحركات الشيوعية الثورية ، اذا لم تتدارك الحكومات المقبلة مشكلة هذه الطبقة بالاصلاح ، واهم ما يقتضيه هذا الاصلاح هو التبديل الاساسي في تنظيم نظام العمل الحاضر بصورة تتلاءم مع حاجات الامة وتقدمها .
ثم توزيع الاملاك العقارية توزيعا اعدل من شانه ان يخفف حدة التفاوت الطبقي الحاضر ويحسن حالة الانتاج . فان قسما كبيرا من الاراضي التي يملكها اسيادها اليوم لا تستثمر الاستثمار الاقتصادي المطلوب (١) .

بهذا ينتهي عرضنا العام الموجز للوضع الطبقي في سوريا ، والذي يجعلنا ان نعتبر هذا الوضع كمشكلة اساسية في حياة هذا القطر هو ليس كما اسلفنا ـ انقسام المجتمع الى طبقات يتباين بعضها عن البعض الاخر . لان ذلك شيء طبيعي ظاهر في المجتمعات الانسانية كافة . وانما فقدان التوازن بين هذه الطبقات مما يؤدي الى استثمار الفقيرة منها واستئثار الغنية بالسيطرة الاقتصادية والسياسية . وعلاوة على ذلك فان نظام الطبقات القائم في سوريا اليوم لا يتفق وما تصبو اليه البلاد من تقدم وعمران ، فضلا عن انه لا ينسجم مع دستورها الديموقراطي الحر الذي يقتضي وجود التوازن بين مختلف عناصر المجتمع وعدم طغيان طبقة على الطبقات الاخرى . ولقد اتضح لنا اثناء عرضنا للوضع الطبقي في سوريا ان هذا الطغيان هو الشيء البارز فيها والذي يعد عقبة كاداء في سبيل تطورها ورقيها . وان نظرة واحدة الى الجهاز الحكومي في هذه البلاد تكفي لتبيان صحة هذا القول وتاكيده . فان نسبة الاعضاء المنتمين الى الاسر الاقطاعية في المجلس النيابي السوري هي (٨٥ في المئة) والعدد الباقي يمثل الطبقة الوسطى واغلبهم من الشريين اصحاب التجارة الواسعة والصناعة الكبيرة . وقس على هذا القسط تقريبا في مختلف دوائر الدولة العليا . فان ابناء العائلات واصحاب الجاه والمال هم المسيطرون . وهؤلاء جميعا يتساندون ويشد بعضهم ازر بعض لحفظ كيان طبقتهم وتدعيم نفوذها دون ان يكون بينهم سابق معرفة او سالف علاقة وانما هو عمل تقليدي موروث عن اسلافهم بالايحاء والغريزة . ومن النادر

---

(١) ـ لقد استقيت اكثر معلوماتي في كتابة هذا الفصل من المصادر التالية :

ا ـ E. Rabbath, Revue Internationale de Sociologie, p. 503 - 516

ب ـ من مقابلاتي مع الدكتور منير العجلاني والاستاذ جلال السيد الذي خصني بكثير من ارائه في هذا الموضوع .

جدا ان تجد رجلا عصاميا يشق لنفسه طريقا كي ينفذ الى تلك الطبقة اويدانيها وعلى ذلك فان اغلب القوانين التي تسن واكثر المشاريع التي تصدق ما هي الا انعكاس واضح لمصلحة هذه الطبقة الحاكمة التي تسعى الى المحافظة على كيانها بشتى الاساليب . امـا المظاهر الاخرى التي تبدد للوهلة الاولى ذات الطابع فيه شيء من العدل والانصاف والمساواة فهي ليست سوى تمويه لحقيقة الاوضاع الظالمة التي كثيرا ما تتجلى بشكلها السافر الذي لا يدع مجالا للتاويل او الاحتمالات.

واذا اردنا ان نستشهد بالوقائع اليومية القريبة فاننا نجدمنها المئات التي تنطبق جميعها بصحة ما نرمي اليه .

جاء في جريدة النذير الحلبية ما يلي :

" منذ ايام فرض المجلس النيابي ثمنا مرتفعا للقمح في الوقت الذي ماتتفيه اسعار السلع والبضائع للهبوط . والقمح هو المادة الاساسية لغذاء الشعب ومن الثابت ان هذا الثمن الغالي لم يفرض الا لمصلحة كبار الزراع اصحاب القوة البارزة في المجلس النيابي وبذلك حكم مئات من الافراد ان يدفع ملايين من ابناء الشعب اثمانا مرتفعة لغذائهم اليومي من غير مبرر سوى مصلحة اناس من افراد تلك الطبقة . وفي الوقت نفسه كانت رغبة الحكومة ان لا تخضع الشعير للحصر ولكن مداخلة قلة من النواب ادخلته وفرضت له اسعارا فاحشة بالوسيلة ذاتها وللسبب نفسه (١) " .

على هذه الصورة وغيرها تظهر سطوة الطبقات العليا وتلاحظ قساوتها وشدتها بالنسبة للهيئات الشعبية الفقيرة . ومن الامور المسلم بها تاريخيا ان الطبقات الحاكمة التي اعتادت ان تجعل لنفسها الحق في ان تستعلي وتسيطر وتستغل وتستثمر لا يمكن ان تتنازل عن ذلك طائعة مختارة وهي متحصنة بقوتها وتضامنها . بيد ان الشعب متى استكمل وعيه وشعر بانسانيته الكاملة فلا شيء يقف امامه حينما يمشي بخطى متزنة رشيدة نحو العدالة الاجتماعية التي تحقق له حكما مستمدا من مصلحته ونظاما يساوي بين افراده ويمحو ما لا ينقصه الغدر والظلم .

---

(١) ـ جريدة النذير الصادرة في حلب في ٤ حزيران ١٩/٤٦

لائحة باسماء اعضاء المجلس النيابي السوري ، منظمة وفقا للطبقة التي ينتمون اليها (١) .

ان هذا التصنيف ليس الا تجريبيا . لان التصنيف العلمي الصحيح يحتاج الى عدة خارطات والى معلومات اوسع وادق . ويجب ان نلاحظ بان النواب الذين وردت اسماؤهم في اللائحة لم ينتخبوا لكونهم ممثلين لطبقة ما فقط . فهنالك عوامل اخرى لها اهميتها ايضا منها الكفاءة والنضال الوطني في غضون عهد الانتداب .

دمشق

الطبقة العليا (العائلات الاقطاعية الوجيهة)	الطبقة البرجوازية الوسطى	
	اصحاب الثروات	اصحاب المهن الحرة وصغار الملاكين
شكري القوتلي (انتخب للرئاسة الاولى	لطفي الحفار	نصوحي البخاري
سعيد الغزاوي	عبد الحميد الطباع	نجيب الريس
جميل مردم بك (	احمدا لشراباتي	نظريت يعقوبيان (ارمني)
خالد العظم	نعيم الانطاكي	فارس الخوري
نسيب البكري	جورج صحناوي	صبري العسلي (وزير الداخلية
عفيف الصلح		فخري البارودي
ملحقات دمشق:		
عبد الحكيم الدعاس		علي ديبو
مصطفى عبد المولى		احمد عوده
وديع الشيشكلي		
نسيب الكيلاني		
الامير فاعور الفاعور		
عز الدين سليمان (جركس		
جميل الشماط		
حمص وضواحيها		
مظهر ارسلان	عبد الله فركوح	عيسى اليونس
عدنان الاتاسي		
حلمي الاتاسي		
هاني السباعي		

(١) ـ حصلت على هذه المعلومات من رشيد الملوحي سكرتير دائرة قلم المطبوعات في دمشق .

الطبقة العليا (العائلات الاقطاعية والوجيهة)	الطبقة البرجوازية الوسطى		حماه وضواحيها
	اصحاب الثروات (صناعة وتجارة)	اصحاب المهن الحرة وصغار الملاكين	
غالب العظم	فريد مرهج	رئيف الملقى	
نجيب البرازي		اكرم حوراني	
الامير سليمان العلي			حوران
محمد المفلح			
مزيد المحاميد			
محمد خير الحريري			
احمد الحسين			
احمد فارس الزعبي			حلب
سعد الله الجابري	وهبي الحريري	علي الحياني	
عبد الرحمن الكيالي	سامي صائم الدهر	موسيس سلطيان (ارمن)	
رشيد كتخذا		هزاج بابازيان =	
ناظم القدسي	ميخائيل اليان	جوزف اليان	
احمد خليل مدرس		فتح الله اسيون	
		لطيف عنيمه	
	ميشيل رفيح	عزرا ازرق	
حكمي محمد الحمكي			ملحقات حلب
محمد الحاج محمود بركات		محمد الحاج سعيد سكر	

العائلات الاقطاعية والوجيهة	الطبقة البرجوازية الوسطى	
	اصحاب الثروات (تجارة وصناعة)	اصحاب المهن الحرة وصغار الملاكين
علي اليكن		
وحيد الدويدري		
صادق المعلم		عبد القادر الرحمو
عبد القادر برمدا		حكمة الحكيم
محمد الغانم		محمد الشيخ ابرهيم العويس
ابرهيم الحسن الربيع		
حكمه الحراكي		
جميل باقي		
عبد الرحمن الحافظ		
محمد الحاج محمد الشيخ اسماعيل (كردي)		
فائق منان افا (كردي)		
نجدة النجاري		
مصطفى شاهين (كردي)		
دير الزور وضواحيها		
الحاج محمد العايش		حامد الخوجه
قاسم هنيدي		عثمان المرعي
راغب المحمود البشير		
بركات الاحمد الفرج		
محجم البشير		
عبود الجدعان		
تركي الخجرس		

	العائلات الاقطاعية والوجيهة	الطبقة البرجوازية الوسطى	
		اصحاب الثروات (صناعة وتجارة)	اصحاب المهن الحرة وصغار المالكين
الجزيرة ونواحيها	خليل ابرهيم باشا (كردى)		سعيد اسحق
	على الزويع		
	عبد الباقي نظام الدين		
	حسني حاجو لفا (كردى)		
	سعيد محمد افا		
	عبد الكريم ملا صادق		
جبل الدروز			
	يوسف الاطرش		
	يوف عبد الغفار		
	على مصطفى الاطرش		
	عقله القطامي		
	سعود الفواز		
	حسن حامد		
جبل الملويين			
	على سعاد هارون	وديع سعاده	
	محمد سليمان الاحمد	الدكتور الياس عبيد	
	نورى الحجى		
	سليمان المرشد		
	محمد جمال على اديب		
	على اسعد اسماعيل		
	بهجة نصور		
	ابرهيم ناصر		
	محمد جنيد		
	رياض عبد الرزاق		
	حمد محمود الحامد		
	منير العباس		
	محمد امين ارسلان		
	سعيد الدرويش		

تابع العائلات الاقطاعية

عشائر البادية الرحل (اقطاعيون)

الامير نواز الشعلان

تامر الملحم

نواف الصالح

الامير شايش العبد الكريم

راكان الرشد

الامير محجم بزمهية

عبد العزيز الكميستش

دهام الهادى

ميزر عبد المحسن

مشكلة البـــــدو

لعل مشكلة البداوة اكثر المشاكل التى عرضناهـا اثارة لشعور الدهشة والغرابة فانعدام الوعي الديموقراطي فى شعب ما ، مثلا ، وسوء الادارة ، وتفشى الامية ، واختلال الجهاز الحكومي ووجود الطائفية وبقاء اثار الاقطاعية هنا وهناك ، امراض لا تخلو منها المجتمعات المتحضرة الحديثة ، انما تتفاوت فى كميتهـا واخلاص قادتهـا فى مكافحتها ومعالجتهـا . تلك مشاكل تشترك بهـا سائر الامم . اما مشكلة البداوة فقد انفرد بهـا القطـر السورى والاقطار العربية دون سواهـا من الامم الحية المتوثبة للرقي والنهوض . وهي تعني قيام مجتمعين فى قطر واحد وعلى صعيد واحد يتباينان اشد التباين لان كلا منهما يمثل مرحلة خاصة من مراحل التطور البشرى .

ان بقاء جزء كبير من ابناء البلاد بمعزل عن نشاط المجموع الاكبر المتحضر معناه بقاء ثلم فى جسم الامة يتسع ويشتد خطره كلما جد هذا المجموع فى السير فى مضمار التقدم والحضارة . وقد كان الفرنسيون ابان انتدابهم على سوريا يتخذون وجود القبائل فيها حجة لتبرير بقائهم وسلاحا فى سبيل خنق الحركة القومية المناضلة . وكانت سياستهم ترمى الى ابقاء القبائل على وضعها القديم دون العمل على تحضيرهـا ورفع مستواها ، بل الى احيلولة دون تطورهـا الطبيعي ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وقد كشف رجالهم خفايا هذه السياسة ومراميهـا وكتب " مولر " احد كبار ضباط العشائر يقول :
لنكن مقتنعين ان تحضير البدو امر ممكن يسير ولكنه ليس من صالحنا اتباعه "(١) .
وقد نجح الفرنسيون فى سياستهم تلك الى حد كبير . فتسابقت القبائل الى خطب ودهم وراح شيوخهم يتزلفون اليهم معرضين عن السلطات المحلية . وما لبثت القبائل ان اخذت تحتقر الحكومات المحلية وكل حكم وطني وتتطلع الى الاجنبي بشغف واحترام .

واقامت السلطات الافرنسية دائرة خاصة تعنى بشؤون البدو وتتصل بالمفوضية الافرنسية ويشرف عليها ضباط افرنسيون ، وسموهـا = مصلحة العشائر العامة . وتركوا للبدو حريتهم فى ممارسة عاداتهم وحل مشاكلهم وفق العرف القبلي بصرف النظر عما يتاتى عن هذه الحرية من تعارض مع قوانين الدولة ومقتضياتها . وذلك بموجب قرار صادر سنة ١٩٢٢ . وفى سنة ١٩٢٥ خول المندوب السامي موظفي مصلحة العشائر صلاحيات واسعة لادارة شؤون القبائل (٢) فزادوا هوة الانفصال بين القبائل والوطن الام .

---

(١) Commandant Muller : En Syrie avec les Bédouins , p. I59
(٢) E.Rabbath, Evolution Politique de la Syrie sous Mandat, p. 255.

فمشكلة البداوة اذن تنطوي على مشكلة سياسية خطيرة تهدد وحدة البلاد بالتفسخ وتدخل الاجنبي . واذا كان النفوذ الاجنبي قد انقشع عن الاراضي السورية ، واذا كادت القبائل اخذت تتحسس هيبة الحكم الوطني ورهبته ، فان الخطر الناجم عن مشكلة البداوة لما يزل بعد ، لان القبائل مستعدة في كل وقت ان تخذل الوطن وترتمي في احضان الاجانب المستعمرين .

اما المشكلة الاقتصادية التي تنطوي عليها مشكلة البداوة فتتجلى في امرين اثنين اولهما ان بقاء القبائل على انعزالها عن الحركة الاقتصادية العامة معناه فقدان خدمة كبرى يمكن ان تؤديها في استغلال الاراضي الصالحة للزراعة وتنشيط الحياة الاقتصادية بوجه عام . وثانيهما ، ان اعتماد القبائل على حياة اقتصادية اولية ووسائل نقل قديمة بالية الى جانب الحياة الاقتصادية المتجددة التي يحياها المجموع الاكبر يخلق بلبلة واضطرابا . زد على ذلك كله ان ثروات القبائل من مواشي وزراعات معرضة ابدا لغزو البدو واعتدآتهم ، وفي هذا ما فيه من شل للحركة الاقتصادية .

وحسبنا دلالة على خطورة هذه المشكلة ان نشير الى فقدان التجانس الاجتماعي والترابط القومي في سوريا من جراء وجود الوضع القبلي ايضا .

ان البداوة عريقة في القدم في سوريا ، ترجع الى بدء اتصال القطر السوري بالجزيرة العربية . ذلك لان العرب اصحاب حل وترحال وكانت مهاجراتهم من الجزيرة الى سوريا مستمرة يدفعهم اليها جدب الجزيرة وقلة موارد الرزق فيها (١) . وليس بين الجزيرة وسوريا من موانع جغرافية تعيق هجرات الجماعات النازحة (٢) . فكانت تهجر القبائل العربية ارض الجزيرة مولية وجهها شطر الاراضي السورية فيتحضر بعضها في المدن والقرى ، ويظل البعض الاخر متنقلا في مجالاته البادية الشام . وكانت القبائل العربية في سوريا قبل الاسلام تقوم بمهام جليلة كحراسة القوافل التجارية وتيسير المواصلات بين اجزاء الامبراطورية البيزنطية من جهة وبين الاقطار المجاورة من جهة اخرى . ومن القبائل التي عاشت في سوريا قبل الاسلام لخم وجذام ، والغساسنة الذين اخذوا ببعض اسباب الحضارة وشيدوا القلاع والقصور وكان لهم شان كبير في سياسة الدولة البيزنطية . ولما جاء العرب سوريا فاتحين يحملون

---

(١) ه كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص = ٥٩

(٢) — E. Rabbath: Revue Internationale de Sociologie .

رسالة الاسلام كانوا لا يزالون يحيون بحياة قبلية . فانتشروا في ارجاء هذه البلاد واندمجوا بسكان المدن وطبعوهم بطابعهم البدوي . ولكن قسما منهم ظل يعيش عيشة البداوة التي الفها في الجزيرة وآثر البوادي على سكنى المدن . ثم تعاقبت الهجرات بعدئذ من الجزيرة الى سوريا بصورة طبيعية اكثر من قبل بحكم اتحاد جميع هذه البلاد في دولة واحدة وحضارة واحدة . وظل سيل الهجرات غزيرا غير منقطع حتى القرون الاخيرة . ولا ادل على ذلك من ان القبائل البدوية في سوريا لا يرجع تاريخها الى ابعد من قرنين او ثلاث قرون . اما القبائل نصف الحضرية ، فترجع الى ابعد من هذا التاريخ ، جاءت بدوية رحالة ثم ما لبثت عوامل الاستقرار والاحتكاك بالمدن ان خففت من بداوتها فاخذ بعضها بحياة الزراعة وظل البعض الاخر يترجح بين البداوة والحضارة ، وما دام بعضها محصورا في البداوة وما دامت القبائل الرحالة هي التي تمثل حياة البداوة اتم تمثيل ، فلنتعرض بايجاز تاريخ هذه القبائل غاضين الطرف عن القبائل نصف الحضرية .

القبائل الرحالة في سوريا هي شمر وعنزه

١ – شمر (١) : يرجع تاريخها في سوريا الى اواخر القرن السابع عشر حين هاجر قسم من القبيلة من مواطنهم في اطراف نجد قاصدين الاراضي السورية بقيادة احد رؤسائهم " فارس الجرباء " وحاولوا في بادئ الامر دخول منطقة حمص – حماة ، ولكنهم اصطدموا بالموالي والحديديين ثم بالعنزيين الاول في مطلع القرن الثامن عشر ، فتركوا هذه المنطقة وعبروا الفرات واستقروا في الجزيرة الفراتية التي لا تزال موطن القسم الاكبر منهم ، ومنطقة نفوذهم ، ويوجد قسم منهم اليوم في العراق . ولقد كان لهم عز وسطوة ابان العهد العثماني الاخير ، واستعطفهم الباب العالي في اخماد القلاقل التي حصلت في بغداد سنة ١٨٣٥ . وبلغ من قوة نفوذ احد رؤسائهم " صفوق الجرباء " ان منحه الباب العالي لقب سلطان البر . فراح هذا يوسع نفوذه شرقا وغربا مخلا بالامن ، فقبضت عليه الدولة وافرجت عنه ثم اغتيل سنة ١٨٤٠ . وحين جاء الفرنسيون الى البلاد ، كانت شمر اشد القبائل احجاما عن الاتصال بهم ، ولم يستطع الفرنسيون ان يكسبوا ود شمر ويستميلوهم حتى سنة ١٩٢٥

(١) – عباس العزاوي = عشائر العراق ، ص : ١٤٣ – ١٦١
Muller : p.p. 22 - 41
Rabbath: Evolution , p.p. 240 - 242 .

تنقسم شمر (الكائنة في سوريا) الى عشيرتين كبيرتين هما الخرصة وسنجاره ويراسهما فرعان من آل المحمد (او آل الجربا) . يراس شمر الزور (سنجاره) ويمثلها في البرلمان مبزر العبد المحسن . اما الخرصه فيمثلها في البرلمان دهام الهادي . ويتمتع هذا الاخير بنفوذ قوي ، وقد كانت علاقاته مع السلطات المنتدبة متوترة احيانا . وقد تباينت تقديرات الخبراء لعدد كل من سنجاره والخرصة ، وجعل مولر عدد سنجاره ١٤٠٠ بيتا (اي ما يقارب ٨٠٠٠ نسمة) وعدد الخرصة نحو الف بيت . ولكن كثيرا من العارفين لا يحفلون بهذا التقدير ويرفعون عدد نفوس كل من العشيرتين الى اكثر من ذلك .

٢ – عنزه (٢) : جاءوا الى سوريا في منتصف القرن السابع عشر وتتابعت هجراتهم اليها حتى اواخر القرن الثامن عشر . وقد تحالفوا مع الموالي واجلوا شمر عن مناطقها وعن بادية الشام وبسطوا نفوذهم تدريجيا على سائر قبائل البادية . وقد بلغوا من القوة ان استطاعوا مهاجمة حلب ودخولها سنة ١٨٣٥ . ولم تكسر الحكومة العثمانية شوكتهم وتبعدهم عن المدن الا في عام ١٨٦٢ حين جهزت وتنفذ حملة عسكرية كبيرة . وتاريخهم ملؤ بالانشقاقات والخلافات الداخلية وهم ينقسمون الى فرعين كبيرين هما آل مسلم وآل بشر . ويتفرع عن آل مسلم الرولة والحسنه . والرولة هي اقوى العشائر العنزية شكيمة واكبرها عددا . يقدرهم مولر بالفين وخمسماية بيتا اي نحو عشرة الاف نسمة ، ولكن ثمة فرق اخرى تلتحق بهم . ويراس الجميع فواز الشعلان ويمثلهم في المجلس النيابي . اما الحسنة فهي عشيرة صغيرة العدد لا تتجاوز الثلاثماية بيتا . ولكن لها نفوذا ادبيا كبيرا في البادية بالنسبة لمجدها الغابر وتحالفها مع الرولة . وكان يمثلها في المجلس النيابي طراد الملحم وقد قتل في دمشق منذ شهور قليلة فجاء ابنه نامر عوضا عنه .

ويتفرع عن آل بشر عشيرتان هما الفدعان والسبعه . اما الفدعان فيعدون نحو ثلاثة الاف بيتا (١٥٠٠٠ نسمة) وينقسمون الى فخذين ، الولد ويراسهم ويمثلهم في المجلس

---

(١) – المزاوي = ص ٢٥٨ – ٢٦٠ –

Rabbath, Evolution, p. 243

مجحم بدلهيد . وهذا له سطوة كبيرة ونفوذ لدى السلطات وسائر القبائل . ثم آل ماجد ومنلهم عبد العزيز بن كميشيش . اما السبعة فيعدون نحو خمسة الاف بيتا وراسهم ومنلهم راكان بن مرشد .

تلك هي القبائل البدوية في سوريا جاءتها انتجاعا للكلأ وطلبا للرزق او بفضل مؤثرات خارجية كضغط ابن السعود على شمر واضطرارها الى التخلص من نفوذه (١) . وحافظت هذه القبائل النازحة على نظمها وعاداتها وكانت بمعزل عن رعاية الدول ورقابتها . فملاء الغزو والقتال حياتها وفي اما تتقاتل فيما بينها او تقاتل القبائل نصف الرحالة طمعا في الغنيمة ورغبة في بسط نفوذها . وكانت القبائل نصف الخضرية تدفع لها جزية معينة تسمى الخوه دفعا لاعتدائها وشرها . وظلت سياسة العثمانيين نحو القبائل ضعيفة متسمة بالاهمال والتقصير حتى عهد السلطان عبد الحميد حين عمدت الى تحضير البدو بمنحهم اراض للاستيطان . وتاسيس مدرسة لابناء الشيوخ في الاستانة . كما اغدقت على رؤسائهم القاب الباشوية والبكوية . على ان هذه السياسة لم تؤت اكلها لعدم اخلاص الولاة في تطبيقها (٢) . وقضيت القبائل على حياتها المالوفة من غزو وقتال حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . وكانت كثيرا ما تتطلع بالدولة من جراء فرضها الضرائب عليها فيختل الامن في البادية وتسود الاضطرابات اعواما طويلة .

ولما قامت الحرب العالمية الاولى راح الحلفاء يعملون في كسب ود القبائل والاستفادة من امكانياتها العظيمة في الحرب . وافلحوا بواسطة ماانفقوه من مال ووعود في جلب البدو الى جانبهم . وحارب البدو الى جانب الحلفاء . فاحدث اشتراكهم هذا واحتكاكهم بالحلفاء هزة في المجتمع البدوي وكان بامكان الفرنسيين الذين جاؤوا سوريا ان يستفيدوا من تلك الهزة ويعملوا على رفع مستوى القبائل وتحضيرها ولكن الفرنسيين ـ كما راينا ـ كان همهم ابقاء القبائل على حالها المتاخرة لتوطيد مركزهم في البلاد فزادوا الطين بله .

ثم تلاشى النفوذ الاجنبي من البلاد وجلت الجيوش عنها واصبحت ادارة العشائر من شان الحكومة السورية فقامت مديرية العشائر العامة خلفا للمصلحة القديمة التي كان يديرها الفرنسيون . ولكن المجتمع القبلي لا يزال على حاله . فما السبب يا ترى ...

---

(١) ـ العزاوي : ص . ١٥٠ ... وما بعدها .

Mohammed Fadhel Jamali: The New Iraq: Its problem of Bedouin Education : p. 50 - 59 .

Muller : p. 318 .

ان البدو خاضعون لبيئة جغرافية ونوع من المعاش لا يسمحان لهم بالتطور المرجو الذى ينال الجماعات البشرية . وبيئتهم هذه اورثتهم مزايا خلقية وعادات لا تائتلف ومقتضيات الحضارة . فالبدوى شديد الاعتداد بنفسه كثير الحرص على حريته لا يخضع لقيد ولاسلطة (١) . وقد نفر البدو من الاسلام لان فيه تقييدا لحريتهم وحاولوا التخلص من سطوته ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان القرآن وحده لا يقتصر في الدان بموقف البدو من الاسلام فوصفهم القرآن بالنفاق والكفر " الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم " (التوبة). ودخلوا فى الاسلام اما خوفا او طمعا بالغنائم التى يحصلون عليها من الغزوات والحروب وكثيرا ما كانوا يبتعدون عن نصرة النبي حين يلمسوا سبيلا الى القعود " وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم "(التوبة). ولا يزال تاثير الاسلام فى البدو ضئيلا فهم لا يعرفون منه الا انه مجموعة من الفروض والطقوس التى لا تسمح لهم طبيعة حياتهم القيام بها .

ثم ان البدو لاضطرارهم الى كسب معاشهم ودرء الاخطار عنهم مدفوعون الى التكتل والتضامن اى الى العصبية القبلية . والعصبية القبلية تحول دون اندماجهم فى كل اكبر كالمجتمع القومي . ولم تكن العصبية القبلية مقتصرة على الاعراب فقط فى القديم ، بل كانت عند جميع العرب بدوا كانوا ام حضرا . وذلك لان العرب جميعهم كانوا يعيشون حياة قبلية ، والفرق بين العرب منهم والاعراب انما هو فى درجة شظف الاحوال وما يترتب على هذا الفرق من اختلاف فى المزايا النفسية والخلقية . وقد احتفظ العرب بعصبيتهم القبلية اجيالا طويلة بعد الفتح الاسلامي وكانت مثار نزاعات مستمرة عنيفة ادت بالنهاية الى انهيار دولة الامويين فى الشرق ثم فى الاندلس وتوقف الزحف العربي نحو فرنسا (٢) .

وقد استتبع وجود هذه العصبية القبلية عند البدو مع شعور الاعتداد الذى المعنا اليه شعور احتقار لاهل الحضر . فالبدوى يانف من سكنى المدن وينظر الى الصناعة والزراعة كانها مهن خسيسة لا تليق به . والبدو يعيشون حياة بائسة شاقة كلها حل وترحال وكفاح وقتال . ففى الصيف يذهبون الى مواضع معينة قريبة من مواضع المياه حتى تخف فيها وطاة القيظ .

---

(١) — احمد امين ، فجر الاسلام ، ص . ٣٠ — ٣٢

(٢) Philip. K. Hitti :History of the Arabas p. 280 - 281 .

فاذا اطل الشتاء قصدوا الحماد يستقبلون الربيع حيث ينعمون برغد من العيش نسبي بعض الوقت . وما ان يدبر موسم الربيع حتى يعودوا الى حياتهم القديمة المملوءة بؤسا وحرمانا .

والغزو هو شغل البادية الشاغل يتخذونه تسلية و سبيلا لكسب الغنائم ووسيلة لابقاء تضامنهم القبلي (١) . والى جانب الغزو توجد مجالس اللهوة المعتودة في بيوت الشيخ والتي تكون بمثابة مدارس تهذيبية لهم . اما مشاكلهم فتحل وفقا لما توارثوه من عرف وعادة . والمرافعة عند البدو تقوم مقام القضاء في المجتمعات المتحضرة الحديثة ، وهي تقسم الى اقسام حسب ماهية القضية المعروضة واهميتها .

فنحن نرى اذن ان بيئتهم الطبيعية قد اورثتهم تقاليد وعادات تحول دون تطورهم نحو الحضارة . لذلك فانه من الصعوبة بمكان ان ينتقل البدوي من مجتمعه البدوي القبلي الى المجتمع المتحضر من تلقاء نفسه ووفقا لقانون التطور والنشوء . فهذا ولا شك امر يحتاج الى وقت طويل . والسرعة في تحضير البدو من اولى مستلزمات التطور السوري . فلا بد والحالة هذه من ايجاد وسيلة لتحضير هؤلاء اذا كانت الغاية احداث مجتمع قومي ديموقراطي اصيل . اما المنهاج التحضيري فيقع كما اراه في خطوتين كبيرتين . الاولى هي ايجاد اراض زراعية وتعويد القبائل حياة الزراعة . وليست هذه الخطوة سهلة التنفيذ اذا كنا نعلم تعشق البدوي للحرية وحبه لها . فالاستقرار في مكان معين من شانه اقتطاع الشطر الاوفى من الحرية التي نشا عليها . ولكن هذه الصعوبة يجب الا تدفع اولي الامر الى اليأس من امكانية تنفيذ المنهاج التحضيري . ذلك انه اذا كان المنهج يرمي الى رفع مستوى المعيشة وتحسينها اصبح من الممكن اغراء القبائل على الاستقرار . فحياة البدو الحاضرة حياة تعاسة وشقاء ، الجوع منتشر انتشارا كبيرا . والحالة الصحية في انحطاط كلي وموارد الرزق التي كانوا يعتمدون عليها تلاشت او هي في طريق الاضمحلال . فقد كان لهم في الماضي موارد رزق كثيرة اهمها الضريبة (ك) التي كانوا يفرضونها على القبائل نصف الرحل التي تعبر الصحراء + ٢ = الابل كواسطة للنقل ٣٠ = الغزو . اما الان فالحكومات قابضة على الطرق الصحراوية تقيم فيها المخافر وتعاقب من يحكر سلامة الطرق واخذت وسائل النقل الحديثة تحل محل الابل .

---

(١) = العزاوي : ص ـ ٢٥٠ .

والخطوة الكبرى الثانية في المنهاج التحضيري هي العلم . والعلم ليكون واسطة للثقافة الحقيقية يجب ان يبنى على تفهم طبيعة الشعب وطرق معيشته . لهذا يجب قبل وضع نظام تدريسي للبدو ان تحلل ميزاتهم الثقافية وصفاتهم الطبيعية الموروثة وان تدرس العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الميزات والصفات . وعلى ضوء هذه الدراسة يقوم هذا المنهاج التحضيري .

هذه هي الخطوط الكبرى لعملية تحضير البدو . غير ان هناك امورا ثانوية لها اهميتها في القضاء على الحياة القبلية او على الاقل على بعض تاثيراتها في حياة البلاد السياسية . فالبدو كما نعلم يكونون جزءا مهما من ابناء سورية . وهم يتمتعون بحقوق المواطنة وامتيازات اخرى تمكنوا من الحصول عليها في العهود الماضية . واهم هذه الامتيازات استقلالهم القضائي الذي ما زال يجرى طبقا للعرف والعادة عندهم . ان بقاء هذا النوع من القضاء معمولا به بينهم يؤخر حركة التحضر المرغوبة . فهذا يجب ان يزال وان يصبح البدو خاضعين كغيرهم من المواطنين لقوانين الدولة كافة دون اى تمييز في الحقوق والواجبات والامر الاخير الذي اود ان اشير اليه هو تمثيل القبائل في البرلمان بالرغم من كون ممثليها يتصفون بالجهل والامية . وان لهذا التمثيل اثرين سيئين في حياة البلاد . فهو اولا يزيد في نفوذ شيوخ القبائل الممثلة في البرلمان ويجعلهم يتمسكون في الوضع القبلي لما يجدونه فيه من الوسيلة لبلوغ اهدافهم ومآربهم الشخصية . ثانيا - ان هذا التمثيل يجلب الى المجلس النيابي فئة جاهلة عديمة النفع تكون العوبة في ايدى بعض الساسة الذين يسعون لكسب اصواتها بشتى الاساليب بغية الوصول الى اغراض ربما تكون سافلة دنيئة . فتغيير قانون الانتخاب بشكل يجعل الدائرة الانتخابية تقوم على اساس المحافظة عوضا عن الدائرة الحالية القائمة على اساس القضاء . ثم وضع شروط علمية للناخبين والمنتخبين امر ضروري لاقصاء هذا القسم المتاخر من ابناء سوريه عن حياة البلاد السياسية . وان عملا كهذا لا يعني ابدا اخماد روح الحرية وقتل فكرة المساواة ، لانه عمل وقتي غايته الاصلاح لا الهدم ومعتقده خلق مجتمع قوي ديموقراطي سليم .

المشكلة التربوية

"ان الحكومة الديموقراطية بلا تعليم عام لا شبه شيء بمهزلة او مأساة وربما كليهما . فاحسن خدمة يمكننا ان نقوم بها لأمة من الامم ، بعد تامين حريتها واستقلالها ، هي تنوير الكبار وتعليم النشيء الصغير ليتسنى لتلك الامة المحافظة على تلك البركة" جيمس مديسون

اصبح من البديهي في هذه الايام ان توجه الحكومات جل اهتمامها وعنايتها للأمور التربوية اذ لم يعد خافيا على احد ما لهذه الامور من اثر فعال في تكوين الفرد وبالتالي تكوين الامة . قال "جون ديوي" من خصائص الحياة محاولة استمرار وجودها وبما ان هذا الاستمرار لا يمكن الا بالتجدد فالحياة عملية تجدد ذاتية ، والتربية تحفظ كيان الحياة الاجتماعية كما يحفظ الغذاء والنسل الحياة المادية (١) . وقال جفرسون لا تدوم لأمة ما حريتها الا اذا دعمتها تربية صحيحة . وواجب الحكومة الاول هو تعهد امور التربية والتعليم (٢) . وليست العناية بالتربية من الامور المستحدثة الجديدة فاننا لو تصفحنا تاريخ التربية منذ اقدم الازمان لوجدنا ان للتعليم علاقة وثيقة بحياة الشعوب وان له شأنا عظيما في الحركات الاصلاحية والنهضات القومية . ولقد تنبه فيلسوف اليونان افلاطون الى هذه الحقيقة قديما وحاول ان يعالجها في جمهوريته المثلى ومنذ ذلك الحين اخذ بناة الجمهوريات والقوميات يتعظون بمواعظه ويسيرون في خطواته . غير ان اهتمام الاقدمين بشؤون التعليم لم يبلغ الحد الذي نشاهده اليوم . فلقد اصبح في هذه الآونة من التاريخ موضع اهتمام الامم كافة يدلنا على ذلك ما عقد من مؤتمرات بين اعضاء الامم المتحدة في السنوات الاخيرة مهمتها توجيه التربية والتعليم توجيها يساعد على بناء عالم جديد يسود فيه السلم والطمأنينة . فالتربية اذن اصبحت من الوسائل الاساسية التي يعول عليها في توجيه الافراد توجيها يتفق والعناية المنشودة وفي خلق جيل يتلائم جسما وعقلا مع محيطه العلمي والعاطفي والاداري . ولو كان يتسع لنا المجال لأتينا على ذكر ما فعلته التربية التوجيهية من العجائب في المانيا النازية وروسيا الشيوعية وغيرهما من الامم على اختلاف وناهيها ، لان نظام الحكم في اية امة كانت يتطلب لكي يكون صالحا مستقرا ان يستمد افراد الشعب الوحي في حياتهم السياسية من روح ذلك النظام . ولا شك ان هذه الحقيقة الواقعية هي التي حدت بانصار الديموقراطية وفلاسفتها لان يبشروا بنشر العلم بين

---

(١) جون ديوي ـ رسالة في فلسفة التربية تعريب احسان احمد التوصي ص ١٩

(٢) عبد الله مشنوق : تاريخ التربية ص ٢١٤

طبقات الشعب معتبرين ذلك من الاسس المتينة التي يقوم عليها صرح الاستقلال والحرية .

قال بعض اولئك الفلاسفة

اولا ـ انه ليس من الحكمة في شيء ان تظل الفروق الاجتماعية بين طبقة الاغنياء المتعلمين وبين عامة الشعب الأميين لانه ان ترك هؤلاء على اميتهم وجهلهم كانوا خطرا كبيرا على سلامة المجتمع .

ثانيا ـ ان الحرية والجهل كالنور والظلمة ، ضدان لا يجتمعان الشعب الامي الخامل والحياة الديموقراطية الحرة ابدا لا يتلاءمان فاذا ارادت امة لبلادها حرية واستقلالا ترتب عليها قبل كل شيء ان تعتاض عن ظلمة الجهل بنور العرفان .

ثالثا ـ ان الاستقلال الذي يقوم على اسس ضعيفة من الامية والجهل لهو استقلال زائف لا يلبث ان تتزعزع اركانه ثم ينهار على رأس القائمين به (١)

وخلاصة القول فان للتربية تاثيرا شديدا على حياة الامة السياسية والاجتماعية . فانتشار التعليم المنظم بين سائر افراد الشعب يساعد على خلق جو صالح لممارسة النظم الديموقراطية والتعلق بها فيما اذا كان موجها ذلك التوجيه وهو علاوة على ذلك من الامور الضرورية لتوحيد مشارب القوم الواحد وصهرهم في بوتقة واحدة يسودها التماسك والانسجام .

على ضوء ما تقدم ننتقل الى بحث المشاكل التربوية التي تجابه سورية . وهنا لا اجد بدا من الاشارة الى ان هذا البحث الموجز لن يتناول الشؤون التربوية بالتفصيل اى انه لن يتطرق الى كيفية تعليم الصغار والى الوسائل الناجعة في تثقيف الشباب الناشيء والى الواجبات الملقات على عاتق الاساتذة والمربين . بل سيقتصر على بحث مشكلتين هامتين بالنسبة لحياة البلاد السياسة والقومية . اولاهما المشكلة الناجمة عن تفشي الامية الى درجة كبرى بين ابناء البلاد وثانيهما المشكلة التي تظهر في تنوع المعاهد روحيا وثقافيا مما يؤدي الى الانشقاق في وحدة الوطن .

كل من يدرس الوضع التربوي في سورية يجد ان هذا القطر يشكو من شيوع الامية بشكل (٢) واسع لا يتلاءم مع النظم السياسية السائدة فيه والتي تقوم على اساس ديموقراطي اقل ما يتطلبه هو الوعي الشعبي الصحيح . فان الاغلبية من ابناء هذا القطر ما زالت تعيش في جهل مظلم لا تعرف ما يترتب عليها من حقوق وواجبات كافراد مواطنين وهي بذلك تقف عقبة كأداء في سبيل استقرار نظام الحكم في هذه البلاد كما تحول دون تطور الحياة الديموقراطية

---

(١) جورج شهلا : عن مقالته : النهضة التربوية في البلاد العربية المنشورة في سلسلة الابحاث الاجتماعية الحلقة الثانية حزيران ١٩٤٥ ص ١٤ ١٥

(٢) نشرت المفوضية العليا احصاءات عن عدد المتعلمين في دولة سورية والاسكندرون في شباط ١٩٣٤ فكانت نسبتهم ٢٥ في المئة ، وفي جبال العلويين ١٧ في المئة وفي جبل الدروز ١٠ في المئة راجع لذلك E. Rabbath: Revue Internationale de Sociologie p: 509

وتقدمها تقدما اصيلا صالحا .

وهنالك امر آخر لعله ابعد خطرا على كيان البلاد السياسي لما يحدثه بين ابنائها من تضارب في الميول العاطفية والنزعات الفكرية ذلك التضارب الذى كان ولا يزال سببا مهما في عدم الانسجام الروحي اللازم لابناء هذا القطر اذا ارادوا بناء كيان قومي متين . واعني بذلك ان سورية تعاني مشكلة تربوية أخرى فضلا عن المشكلة الناجمة عن انتشار عدد الاميين وهي تعدد انواع المدارس المنعكس في تعدد رسالات تلك المدارس ومناهجها .

في هذا القطر اليوم ثلاثة انواع رئيسية من المدارس الابتدائية والثانوية . فهنالك المدارس الحكومية الخاضعة لنظام وزارة المعارف العام والمدارس الوطنية الخاصة ثم المدارس الاجنبية على اختلاف اجناسها ومشاربها ولنا في الاحصاء التالي خير وسيلة لبيان هذا الامر بجلاء ووضوح (١)

	عدد التلاميذ	عدد المؤسسات
١ . التعليم الرسمي	٦٤،١٥٤	٤٧٥
٢ . " الوطني الخاص	٣٨،٤٦٣	٢٨٠
٣ . " الاجنبي	٢٣،٩١٣	١٦٦

فاذا تركنا التعليم الرسمي جانبا لكونه يسير على خطة مرسومة من الحكومة موحدة في المنهج نجد ان التعليم الوطني الخاص تتناوله مؤسسات عديدة اغلبها قائمة على اساس طائفي وغايتها الاولى تربية ابناء الطائفة المنتمية اليها على الشكل الذى تراه ملائما لكيانها ورسالتها الطائفية . وهذه المدارس الخاصة مستقلة بذاتها لا يشرف عليها احد بل تسير في مناهجها الدراسية على الخطة التي ترسمها لنفسها ، ولو كانت بعيدة في مضمونها عن الروح التي يجب ان تسيطر على مختلف المدارس والمعاهد في الوطن الواحد تلك الروح المنبعثة عن اهداف الامة وغايتها . وكثيرا ما نشاهد بعض هذه المؤسسات التعليمية تلقن الشبية الناشئة دروسا لا تتفق وما يتطلبه الوطن الموحد المستقل من تجانس وانسجام في المثل العليا والعقائد السياسية والقومية بين ابنائه .

هذا من ناحية المؤسسات الوطنية الخاصة اما المؤسسات الاجنبية فانها لا تختلف من حيث النتائج عن تلك ، ولعل خطرها ابعد مدى في حياة هذا القطر السياسية والاجتماعية . فان التعليم الاجنبي في سوريا كما نعهده اليوم ما زال مستقلا بذاته لا يرجع للحكومة الوطنية الا في امور تافهة لا خير منها ولا نفع . وهو متنوع متغاير يختلف باختلاف الاصول التي

---

(1) Recueil de Statistiques de la Syrie et du Liban 1942-1945 P: 23

التي يرجع اليها . فهنالك المعاهد الفرنسية بين دينية وعلمانية ، وهنالك المدارس الاميركية والانكليزية والطليانية وغيرها . وجميع هذه المؤسسات تحمل غايات ومآرب خاصة عدا عن الغاية الثقافية العامة التي تعمل لاجلها (١) . ومما لا شك فيه ان المدارس الاجنبية في سورية ، مع العلم بما لها من الايادي البيضاء في نشر العلم في هذا القطر كانت تسعى دائما الى تثبيت النفوذ الثقافي للامة التي تنتمي اليها . وفي ذلك ما فيه من الضرر البالغ على وحدة الوطن الروحية هذا فضلا عما كان يلقيه بعضها من بذور الحقد والانشقاق بين سكان هذه الاصقاع. فبديهي والحالة هذه ان يكون الشباب الناشئ في سورية متلونا من حيث المبدأ والشعور لا تجمعه رابطة ثقافية او روحية واحدة بل تتقاذفه تيارات مختلفة من شتى الثقافات وتتنازعه ميول متباينة يصعب التوفيق بينها وبين الاتجاه القومي المنشود . وغني عن القول بان بلادا هذا وضعها الروحي لا يمكن ان يكون ابناؤها امة بالمعنى القومي الصحيح مهما كان هنالك من الروابط المادية والمعنوية بين سكانها . لأن القومية كما يقول الاستاذ شومان ليست لدى التحليل النهائي سوى مسألة شعور وارادة (٢) . وعلاوة على ما تقدم فان تمايز الثقافات وتنوع الميول الى مثل هذا الحد يجعلان تطبيق النظام الديموقراطي صعبا عسيرا .

هكذا تظهر سورية من الناحية التربوية على وجه التقريب. ولقد فطنت الحكومة الى خطورة هذه الحال واخذت تسعى لتحسينها وتلافي اضرارها بعد ان اصبحت حرة مستقلة. على انه يجدر بنا قبل ان ننوه باعمال الحكومة ومشاريعها الاصلاحية في هذا العدد ان نشير الى الاسباب التي جعلت القطر السوري في هذا الموقف التربوي الحرج .

نظرة عجلى الى تاريخ سورية منذ ان جلا عنها المماليك ودخلت في حوزة العثمانيين تمكننا من معرفة اصل الداء في الوضع التربوي الحاضر . فمما لا ريب فيه ان الاتراك العثمانيين لم يهتموا بالامور الثقافية والفكرية وكما لاحظنا لمحة في عرضنا لتاريخ هذا القطر ابان سيطرتهم عليه ، كان جل اهتمامهم منصرفا للأمور المادية من جمع المال الى حشد الجند وما شابه ذلك . لهذا طغت على البلاد خلال العهود الاولى من حكمهم لها موجة من الجمود الفكري وزالت اغلب معالم الثقافة التي كانت تتميز بها سورية في العهود العربية . فلا غرابة والحالة هذه ان تفشى الجهل واصبح وجود من يعرف القراءة والكتابة

---

(١) Haus Kohen : Western Civilization in the Near East p: 262

(٢) F.L. Schuman: International Politics P: 299

من الامور النادرة العجيبة . في تلك الايام كان نظام الكتاتيب سائدا في ربوع الشام واذا قلنا الكتاتيب فاننا نعني بذلك تلك الامكنة الدراسية التي يلقن فيها الطالب كيفية تجويد القرآن وحفظه ثم شيئا من اصول الكتابة والانشاء (١) . ويجب الا يغيب عن الذهن ما كان لهذه الكتاتيب من اثر عظيم في حفظ اللغة العربية ، مع انها كانت بسيطة مغلقة لا يرجى من ورائها اى نفع من الناحية التربوية (٢) . هكذا كان شأن التعليم عند المسلمين اما ابناء الطوائف الاخرى فلقد كان تعليمهم منوطا بمؤسسات طائفية ابتدائية لا تقف على مستوى ارفع من مستوى المدارس الاسلامية . ولعله جدير بالذكر ان هذه المؤسسات التعليمية كانت حرة مستقلة تؤمن مصاريفها من الاوقاف الخيرية والاعانات (٣) .

بقيت الحركة الثقافية في سورية على هذا الشكل البدائي المتحجر حتى نهاية العقد الاول من القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الحين بدأت تدخل في طور جديد من تاريخها طور يصح لنا ان نسميه بطور الصراع بين النزعة الاسلامية القديمة والاتجاهات الغربية الحديثة . ولزوما علينا ان نشير في هذا العدد الى ان تاثير الفكر الغربي على هذا القطر اتى عن طرق متنوعة وحملته فئات متفرضة . لهذا ترك من الاثار السيئة اكثر مما تركه من الحسنات في حياة الامة التربوية . وسيتبين لنا هذا الامر خلال عرضنا لتطور حركة التعليم في غضون القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

ذكرنا في فصل سابق ان الاصلاحات التي قامت بها الدولة العثمانية ابان القرن التاسع عشر لم تقتصر على شؤون الادارة فحسب ، بل تناولت كثيرا من امور الرعية . منها مسألة التربية والتعليم . ففي غضون ذلك القرن حصلت اصلاحات تربوية عديدة فاحدثت كليات ثانوية ومعاهد عليا للتخصص المهني والدراسات العليا . وفي سنة ١٨٥٧ انشئت وزارة خاصة في شؤون المعارف ، مهمتها الاشراف على المعاهد الحكومية وتنظيمها ثم العمل على رفع مستوى الامبراطورية الثقافي . ولما كانت سنة ١٨٦٩ صدر اول قانون بهذا الخصوص وكان من محتوياته ان يصبح التعليم الابتدائي اجباريا . على انه بالرغم من كل هذه الاصلاحات فان ترتيبات المعارف ظلت ناقصة تشوبها الفوضى . وكثيرا من القوانين المتعلقة بالشؤون التربوية ظل مطويا ينتظر التطبيق . هذا ولم تتغير الحال في المدارس الاميرية عقب اعلان الدستور العثماني رغم ما سن لاجل تحسينها من قوانين بل ظلت كسابق عهدها اداة لانتاج الموظفين ، لا تخرج طالبا يصح ان ندعوه مثقفا بالمعنى العلمي الصحيح .

---

(١) J.A. Babikian: Civilization & Education in Syria & Lebanon p: 80

(٢) J.A. Babikian p : 85

(٣) " " p : 80

ان هذا النوع من المدارس لم يكن فريدا في هذا القطر ابان حكم العثمانيين بل كان يوجد الى جانبه انواع اخرى نشأت تحت تأثير العوامل الاجنبية وبفضل نشاط بعض المبشرين . فكان هنالك علاوة عن بعض المؤسسات الوطنية الطائفية عدد كبير من المؤسسات الاجنبية المتعددة المشارب والنزعات . وكان اغلبها يقوم على اسس تبشيرية محضة رائدها نشر تعاليمها وتثبيت ثقافة القوم المنتمية اليه . فالمدارس الطائفية ومدارس المرسلين الاميركان واليسوعيين والالمان والانكليز وغيرهم من الامم قد جعلت التربية على حد قول الاستاذ كرد علي متلونة في هذه الديار . "فاصبح كل متعلم يخدم الغرض الذى انشئت له مدرسته وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعلم اقساما شتى وتباعدت مسافة الخلف بين ابناء البلد الواحد ،لا اختلاف المذاهب بل لاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له اثر يذكر في غابر العصور ، لأن معظم المدارس التي انشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأثيرها مذهب خاص في الدين والسياسة . وهكذا لو اردنا ان نعدد اسماء الجمعيات الدينية التي تعلم في بر الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين ارسالية ومنها ما ينزع عن المتعلم حب قوميته ووطنه وبلاده . وكم رأينا رجالا ونساء درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا عرب ولا افرنج يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ولا يشعرون شعور الشامي بل يبغضون تاريخهم وتسود بلادهم في عيونهم . ولذلك صح ما يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار انصارا (١) .

ان بلادا تخضع لتربية امية كهذه لا يمكن ان يظهر فيها نشأ موحد من الناحية القومية . فاذا كانت هذه المدارس قد نفعت سورية بما ادخلته اليها من نور العرفان فقد اضرتها بانحلال عقدة الوطنية . ولا عجب فقد كانت فرنسا تستعمل المؤسسات اليسوعية كأداة لدعم نفوذها الثقافي والسياسي في بلدان الشرق (٢) .

هكذا كان شأن المؤسسات التعليمية في سورية قبيل الحرب العامة الاولى كل نوع منها يتباين عن الآخر في مبدئه وغايته . فكان اعظم نقص في المدارس الاميرية انها كانت لا ترمي الا الى اعداد الموظفين، اما المدارس الطائفية والاجنبية فكانت تهيء بعض المتخرجين على معلميها الى الهجرة وتباعد بين ابناء الوطن الواحد وتبعدهم

---

(١) كرد علي : خطط الشام : ج (٤) ص ٨٠

(٢) Cedar of Lebanon ; Syrian Reborn p: 13

وتباعد بين ابناء الوطن الواحد وتبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق على حالة البلاد . ومن الغرابة ان مدارس الحكومة وجميع المقاطعات السورية لم يكن يتعلم فيها غير المسلمين. اما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم ابنائهم على غير مدارسهم او مدارس المبشرين (١) .

ولعله جدير بالذكر ايضا ان امكانية التثقف والتهذب كانت محصورة في الطبقات العليا من الشعب وكانت الاغلبية الفقيرة تتخبط في ظلام الجهل والامية .

فلما دخلت تركيا في الحرب العامة الاولى وانحازت الى جانب الالمان حدثت بعض التغيرات في وضع البلاد التربوي . اذ اضطر عدد كبير من المؤسسات الاجنبية للتوقف عن عمله كما ان مستوى التعليم قد انحط في المدارس الاميرية رغم ما بذلته الحكومة من جهد لتحسين حالة التعليم خاصة في مدارس الاناث (٢) . وعلى مر الايام اغلقت اغلب هذه المدارس بسبب فقدان الامن وانتشار الفوضى الناجمة عن اهوال الحرب في هذه الاصقاع . لهذا كانت مهمة الحكومة الفيصلية شاقة في هذا الامر فكان على وزارة المعارف التي انشئت لغاية الاصلاحات التربوية ان تجابه عدة مشاكل :

اولا ـ تأسيس مدارس ابتدائية وثانوية جديدة تلبية للطلبات المتوالية من السكان

ثانيا ـ ادخال الاصلاحات على المؤسسات القديمة وتجهيزها بالوسائل اللازمة ثم اصلاح برامج التدريس .

ثالثا ـ انتقاء اساتذة يتقنون اللغة العربية بعد ان اصبحت اللغة الاساسية في التعليم . (٣)

وقد انصرفت حكومات ذلك الدور الى معالجة هذه المشاكل بانتباه زائد مقدرة اهمية التربية في حياة الامم الحرة ، بيد ان قصر العهد حال دون تحقيق برامجها الاصلاحية فلم يحدث ابان سيطرتها سوى تغييرات طفيفة اهمها تأسيس الجامعة السورية بدمشق ثم احلال اللغة العربية محل اللغة التركية في تلقين العلوم .

وننتقل الآن الى عهد الانتداب الفرنسي لنرى ما تم في اثنائه من تطورات ، وكيف كانت وضعية البلاد التربوية خلال سيطرته عليها .

ما كان الفرنسيون ان يستقروا في سورية حتى بدأت اغلب المدارس الخاصة للاجانب والمدارس الطائفية التي اغلقت اثناء الحرب تعود الى متابعة عملها . ولقد لقيت تشجيعا في هذا الامر من قبل السلطات الفرنسية التي اخذت تغرق الاموال على اكثرها خاصة على تلك المؤسسات الرامية الى تعزيز موقف فرنسا الثقافي في بلدان الشرق الادنى .

---

(١) كرد علي خطط الشام : ج (٤) ص ٨١ ، ٨٤

(٢) J.A. Babikan: p. 87, 207

(٣) " " p. 88

لقد كانت فرنسا تبدي اهتماما زائدا في توطيد دعائم ثقافتها في هذه البلاد منذ القرن التاسع عشر وكانت تعتمد آنذاك على المبشرين اليسوعيين والفريرات وغيرهم في هذه المهمة فلما تمكنت من السيطرة الفعلية على سورية اخذت تسلك سياسة تربوية خاصة غايتها القضاء على عروبة هذا القطر وتثقيف ابنائه بالثقافة الفرنسية الخالصة . ولعل اوضح دليل على هذه السياسة هو فرض اللغة الفرنسية على جميع المدارس وجعلها اللغة الرسمية الثانية في البلاد . ولو اقتصر الامر على هذا لكان معقولا يمكن تبريره غير انه تعداه الى البرامج المدرسية التي نظمت وهيئت بشكل لا يخفى الغرض منه . فكان الاعتناء بتاريخ فرنسا وجغرافيتها اكثر من الاعتناء بتاريخ هذا القطر وجغرافيته ولطالما لقن التلامذة الصغار نشيد المارسيليز قبل ان يتمكنوا من القراءة والكتابة في لغتهم الاصلية . هذا وقد استعمل الفرنسيون وسائل اخرى اشد حذاقة لعرقلة انتشار الثقافة العربية بين النشء الطالع وذلك بتوانيهم المصطنع وعدم اهتمامهم في شؤون المدارس التي كانت تعلم باللغة العربية وبما اظهروه من استعداد دائم لمساعدة المؤسسات التي تعلم باللغة الفرنسية وتعمل على نشر رسالة فرنسا الثقافية في هذه الربوع (١) .

على الرغم من كل ما تقدم، ومع العلم بان هذه السياسة التربوية التي سلكتها فرنسا في هذا القطر لم تهيء نشأ جديدا صالحا بل ابقته المساوئ القديمة على ما كانت عليه من الناحية القومية فانه ليس باستطاعة المرء ان ينكر ما تم من حسنات في بعض النواحي الاخرى وهي تتلخص فيما يلي :

١ ــ زاد عدد التلامذة في سورية خاصة في المدارس الابتدائية التي كثر عددها . وبذلك انخفض المعدل المئوي للأمية بين السكان (٢) .

٢ ــ ارتفع مستوى التعليم في جميع المدارس وذلك بسبب التنظيم الجديد في المناهج الدراسية والتحسن الذي طرأ على مستوى الاساتذة الثقافي ثم بفضل ما حدث من شهادات حكومية خاضعة لامتحانات مقررة خاصة .

٣ ــ كثر عدد المدارس المعدة للاناث وبذلك زاد عدد المتعلمات بين الفتيات (٣) .

ان هذا العرض التاريخي الوجيز لتطور الحركة التربوية في سورية يظهر لنا امرين اولا ــ ان هذا القطر قد تقدم تقدما محسوسا من الناحية الثقافية وان معدل الامية قد تضاءل عما كان عليه لعهد قريب . واذا كان حتى الآن لم يحقق نهضة التربوية فالسبب في ذلك يرجع الى عوامل عدة منها عدم استقراره السياسي ثم وجود بعض العقبات الاجتماعية التي لا زالت تعترض طريق نهوضه المتكامل من هذه الناحية .

---

(١) G. Antonius: Arab Awakening p: 374

(٢) قابل الاحصاء لعدد التلاميذ بين سنة ١٩٢٨ في تقرير المفوضية لعصبة الامم) ص ١٩٢ وبين سنة ١٩٤٢ (في مجموعة الاحصاءات عن سورية ولبنان الصادر عن المجلس الاعلى للمصالح المشتركة) ص ٣٢ ، ٣٦ (٣) قابل الاحصاء ايضا في العدد السابق الصفحات ذاتها .

ثانيا ـ ان هذا النشاط التربوى كان من اهم الاسباب التي ادت الى نشر الحضارة الغربية في هذه الربوع ولقد ادت المدارس الاجنبية خدمة كبرى في ذلك السبيل . غير ان تأثيرها لم يقتصر على هذه الناحية فقط بل كان له وجه آخر يظهر في هذا التباين الفكرى والتصادم الروحي الذى الذى نشاهده عند ابناء الجيل الحاضر ويكفينا للدلالة على هذا الامر ان نقارن بين خريجي مختلف انواع المدارس في سورية .

وهكذا نجد انه بالرغم من هذا التقدم الذى حصل خلال السنوات الاخيرة والذى كان من نتائجه ان ارتفع مستوى الثقافة في هذا القطر وقضى على الامية عند عدد وافر من السكان . الا ان المشكلة التربوية لا تزال معقدة تتطلب اهتمام اولي الأمر وعنايتهم . فهناك حتى اليوم جمع كبير من ابناء سورية يفقه القراءة والكتابة ويلازمه الجهل بشكل غريب لا يتفق ووضع البلاد الديموقراطي الحر . كما وان البلاد لا زالت تعاني مشكلة تعدد انواع المدارس بصورة تسيء الى حياتها السياسية البرلمانية موالى ترابطها وتجانسها من الناحية القومية .

ان الاصلاحات الجزئية التي قامت بها حكومات الدور الاستقلالي الجديد والتي تناولت نظام المعارف الموروث عن عهد الانتداب (١) لا تحقق الغاية المنشودة من احداث نهضة تربوية عامة . فالتجدد الذى طرأ على فكرة الدولة وهذا الاستقلال الذى نالته البلاد بعد جهادها المتواصل يتطلب فضلا عن الاصلاح في المناهج تعميم التعليم بين السكان وجعله في المدارس الابتدائية اجباريا ثم اخضاع المؤسسات الاجنبية لمراقبة الحكومة وتهيئة النظام التربوى بشكل يتفق مع الاتجاه القومي العربي . اذ لا يخفى بان الذى يزيد في تفكك المجتمع السورى هو ان المثقفين من ابنائه قد تأثروا بالوان مختلفة من التعليم . فهذا غربي وذاك عربي . هذا علماني وآخر ديني . وهنا فئة تدعو الى مذهب اقتصادى سياسي خاص وهنالك فئة اخرى تناوئها وتدعو الى مذهب آخر واغلب هؤلاء مقلد لا ينظر الى حاجات امته المادية والروحية . فالتربية القومية اذا احسن تنظيمها ووحدت اهدافها واصلحت مناهجها واتقنت اساليبها واحكمت ادارة شؤونها ، كفيلة بخلق نشء موحد النزعات متراص البنيان (٢) وهذا ما تتطلبه كل امة تبغي لنفسها كيانا سياسيا مستقرا .

---

(١) الاشارة هنا الى تقارير الاستاذ الحصرى الذى اعدها بناء على طلب الحكومة السورية ولقد اقرها المجلس النيابي مع بعض التعديل . وهي مؤلفة من ستة عشر تقريرا مفصلا تبحث عن الاسس التي يجب ان يقوم عليها اصلاح مناهج التعليم في المدارس الحكومية في سورية . ومع انها خطوة مباركة في سبيل تحسين الحالة التربوية ورفع مستوى التعليم الا انها ليست كافية لاحداث نهضة تربوية قومية في البلاد .

(٢) جورج شهلا : سلسلة الابحاث الاجتماعية الحلقة الثانية حزيران ١٩٤٥ ص . ٢٣

" يستحيل صلاح الدولة اذا تسلط فيها الخالون من صلاح النفس ، الذين يرمون الى جر المغانم بالنهب والاختلاس ."

" افلاطون "

مشكلة الادارة

لقد اعتقدت الامم التي اقتبست الحياة البرلمانية انها بلغت غاية جهادها في نظم الحكم ، ولكن التجارب والحوادث المتوالية ما لبثت ان اظهرت لهذه الامم ان البرلمان وحده لا يكفل صلاح النظم الحكومية من جميع نواحيها وخصوصا من الناحية الادارية . تستدل على ذلك من دراستنا للحياة البرلمانية في فرنسا مثلا . فان هذه الدولة عندما اقتبست النظام البرلماني ، اقامته على اساس اداري سقيم ، صافته لها الحكومات الاستبدادية الغابرة ، فكانت النتيجة اللازمة لذلك ان اختلت حياتها السياسية والدستورية وتعاقبت عليها الثورات . وقد حار العلماء في تفسير هذه الظاهرة ، وبعضهم قال انها ترجع لعدم استعداد الشعوب اللاتينية للحكم البرلماني بنسبة الشعوب الانكليزية ، لكن ادناهم الى الصواب هو رأي الاستاذ "Lowell" بان علة هذه الظاهرة هي تركيز نظام برلماني صحيح على نظام اداري مختل . وهذا الرأي مشابه لراي العلامة الالماني "Gneist" الذي اوطنه بحثه الدقيق في النظم الانكليزية الدستورية والادارية الى الاعتقاد باستحالة فهم نظام الحكم فيها دون الاحاطة بنظامها الاداري (١) .

يستنتج مما تقدم بان استقامة النظم الادارية وانسجامها مع الهيكل السياسي العام امر لازم لحياة الدولة واستقرارها . فان البرلمان كما قال " H. Chardon" ، ليس الا نصف الديموقراطية بل قد لا يكون نصفها الاهم ، اذ ان الديموقراطية تقوم على عنصرين رئيسيين اولهما اداة سياسية قائمة على الاكثرية العددية مشرفة على جميع شؤون الدولة العليا ، ومتغيرة بحسب الانتخاب . وثانيهما اداة ادارية قائمة على حسن الاختيار ودائمة لضبط النظام وتسيير الحياة اليومية ومساعدة الامة على التقدم" (٢) . ومما يلفت النظر في الوقت الحاضر ان اهمية الادارة السياسية تزداد يوما بعد يوم ، وذلك بفعل اتساع المصالح العامة التي تدخل في نطاق صلاحيتها . لذلك اصبح محتما على كل امة ترغب في ان ترى جهازها الحكومي قائما على اسس صحيحة ومتينة ان تنشيء لنفسها نظاما اداريا فعالا . اذ بدونه تصبح عرضة للفوضى وبذلك تنعدم الوسائل الناجعة لتقدم تلك الامة وعمرانها .

---

(١) Le Droit Administratif, Edited by "Librairie du Recueil Sirey" Paris, I936, p. 6 - I0

(٢) Le Droit Administratif, p. I2.

هـذا ما يقـرره اكبر علماء الادارة فى العصر الحاضـره وهـذا هو السبب الـذى دعـا اغلب الـدول الديموقراطـية وغيرها الى النظـر فى شـؤون ادارتها بواسـطة لجـان تقـوم بدرس مستفيض تضـع على اثـره برامج للاصـلاح . ولن اعـدد الان الجهـود التي قامت بها كل من فرنسـا وانكلترا واميركا فى هـذا الصـدد ، كـذلك لن اشـير الى الاتجـاه العالمي للتنظـيم الادارى العلمي والى ما عقـد من مؤتمرات لهـذه الغايـة ، لكون ذلك كلـه يخـرج عن نطـاق هـذا البحث البسيط فى مشـكلة الادارة السـورية . بل اكتفـى بالقـول كما اسـلفت ـ بان اصـلاح الـدولة يتـوقف الى حـد كبـير على اصـلاح الادارة وفعاليتها .

فهـل لـدى الحكومـة السـوريـة فى الوقت الحـاضـر ادارة يصح بان توصـف بالادارة النشـيطة التي تقـوم بالاعبـاء الملـاة عليها بامانة واخلاص ، والتي تؤمن سـير الامـور بشـكل يضمن للشـعب العدالـة والرفـاهية وللامـة التقـدم والعمران ؟ .

نظـرة اجـماليـة الى الجهـاز الادارى فى سـوريا والى الاجراءات التي تسـير فيه ، تجـعلنا نفقـه معنى ذلك النقـد المتواصـل الـذى يتـردد صـداه فى الصحف وعلى الالسـن والـذى ينعت الادارة فى هـذه البـلاد بنعوت مخـتلفـة تجمعها كلمـة " الفـوضى " . ونحـن اذ نقـدم على سـبر غـور هـذه المشـكلـة وتبيـان الاسـباب المؤديـة لهـا لا بد لنا من الرجـوع الى التـاريخ كي نظـهر اصـول هـذه المشـكلة ومـدى عمقهـا فيـه . فان تاريخ الحيـاة الاداريـة مرتبـط بوجـه عام بتـاريخ الحيـاة السـياسـية اشـد الارتبـاط . لهـذا نجـد ان دراسـة عيـوب النظـم الاداريـة الحـاليـة وما يـلائمهـا من عـلاج تبقـى مبتـورة غامضـة ان لم نردهـا الى اصـولهـا التاريخيـة المختلفة ونبـين مـدى صـلة هـذه بتلك واثـرهـا فيهـا .

يـرجع تاريخ نظـام الادارة الحـالي فى سـوريا الى العهـد العثماني الاخـير يوم قامت الـدولـة العليـة بتنظـيم شـؤون ادارتها تحت ضـغط الغرب وتبعـا لسـنة التطـور والنشـوء فقـد كانت الامبراطـورية العثمانيـة قبـل ذلك الزمن مقسـمة الى ايالات لا مركزية يقـوم بالاشـراف عليها نواب السـلطـان الـذين كان لهم من السـلطة الواسعة ما يخولهم لجمع المال وقيادة الجيش وكانوا يسـرفون فى ابتزاز اموال السـكان ويرهقـونهم بالضـرائب .. حتى كثـرت الشـكاوى وتعـددت الثـورات الداخليـة (١) ولقـد بقـي الامر على هـذه الحال الى ان تمكن السـلطـان محمود الثـاني من القضـاء على الانكشـارية ـ عنصـر الفسـاد ـ فالتفـت بعد ذلك الى تنظـيم الامبراطـورية على اسس جـديدة مفتوحة من نظم الغرب وكان ذلك بـدايـة عهـد التنظـيمات فى الامبراطـورية العثمانيـة تلك التنظيمات التي تناولت اغلب مرافق الحكومة

(١) E.D. Engelhardt, La Turquie et le Tanzimat, T. #2. p. 284

وشؤون الرعية والتي اهتمت بامور الادارة بشكل خاص. ولقد جاءت على مراحل متعددة كان يظهر في كل مرحلة منها تحسينا جديدا من حيث المبدأ والتنظيم ، لا من حيث التنفيذ والاجراءات (١) . بيد ان التغيير الاساسي في نظم الامبراطورية الادارية لم يظهر الا في قانون الولايات الذي صدر سنة ١٨٦٤ والذي وسع بعد ئذ بقانون دستوري ١٨٧٦ . على اساس هذين القانونين قام جهاز الادارة العثمانية الجديد ، ولقد ظل جاري المفعول ـ مع تغييرات طفيفة ـ كانت تحدث من آن لآخر ـ حتى انقراض الامبراطورية اثر الحرب العالمية الاولى (٢) .

تبعا لهذه القوانين الادارية التي تم بها عهد التنظيمات الخيرية كان الولاة مسؤولين فقط عن ادارة الخدمات العامة في ولاياتهم ولم يبق لهم اي علاقة اساسية ـ كما كان لاسلافهم ـ في الجيش والعدلية وجمع المال. وكان يساعد الوالي في مهمته تلك مجلس اداري ينتخب بعض اعضائه والبعض الاخر يعينمن قبل السلطان عملا بحقوقه المكتسبة الشرعية . ولم يختلف الجهاز الاداري في السناجق والاقضية عن مركز الولاية العام بل كان يطابقه في جميع الامور (٣). ان هذه القوانين قد احدثت اصلاحات حقيقية وجوهرية في جهاز الادارة الامبراطوري ، فحلت النظم والشرائع محل ارادة المستبدينمن حكام الولايات واصبحت سلطة الولاة وموظفي الحكومة المركزية كافة محددة واضحة على وجه الاجمال (٤) .

هكذا كان حال الادارة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين تعادل تقريبا من حيث النظم والقوانين اعظم الدول الغربية آنذاك . ولا ينقصها سوى التطبيق الحر البعيد عن المفاسد الاخلاقية ، تلك المفاسد التي تجعل اصلح القوانين معدومة النفع لا يرتجى من ورائها خير . ومن سوء طالع تركيا ان جزءا عظيما من القوانين الجديدة ظل مكتوبة على الورق يحوزها التطبيقفقط . قال لاموش : " لئن كان في تنظيم الادارة في المملكة العثمانية عيب فاحش لهو في صور التنفيذ لا في الاصول ، ومنشأ ذلك هو شيوع الاختلاس وانعدام المسؤولية وتفشي الرشوة" (٥).

---

(١) ـ Engelhardt, T.I. p. III, II2, 253 .

(٢) ـ " T.2. p. 266, & Rabbath, Evolution Politique p. 33, 34.

(٣) ـ Engelhardt, T.2., p. 286, 287

(٤) ـ Rabbath, Evolution Politique... p. 3I.

(٥) ـ كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ص ٣٣٠ .

ويرجع الاستاذ كرد علي هذه المساوئ الى سبب اساسي وهو ان الموظفين والعمال كانوا يعفون على الغالب من العقوبات مهما اجرموا ويزيد على ذلك بقوله : " ويقدر ان يوقف عامل مجرم بما يقرر فيه ، وغاية ما يناله من عقوبة ان ينقل من ناحية الى اخرى او يترك مدة بلا عمل ويلقى الستار على جنايته او جريمته ، وكان من الصعب اذا كان للموظف حامي يحميه انزال العقوبة به ولو كان قاتلا . وعلى هذا كان الناس في هذه الامبراطورية بين ظالم ومظلوم ينفذ فيها القانون على فقراء الرعية غالبا وقد يستثنى من احكامه من كان له شافع من ثروة وجاه وقرابة ونسب ".(١) .

فالادارة العثمانية لم تكن لتشكو من سوء نظمها وقوانينها بعد عديد التنظيماته - ولو ان هذه النظم كان ينقصها بعض التفصيل والوضوح في بعض الاحيان - ولكن شكواها كانت صادرة عن انتشار المفاسد الاخلاقية وانعدام المقدرة والكفاءات ولقد عرفت سوريا في العهد الحميدي كما عرف غيرها من اقاليم الامبراطورية اياما مملوءة بالظلم والجور . فكان حكامها على الغالب من النوع الخالي من الكفاءة المتصف بالكسل وفساد الاخلاق وكان مجرد وجودهم سببا مهما في اعاقة التقدم الصناعي ومنع الازدهار التجاري ، هذا فضلا عما كانوا يأتونه من المظالم وما يفعلونه لاجل التفرقة بين الاهالي ، كي يتمكنوا من السيطرة والبقاء في ولاياتهم مدة طويلة (٢) . ولا يجد احدنا غرابة في ذلك عندما يعلم بان الاوامر التي كانت تصدر من الاستانة الى الشام كانت محصورة في طلب المال والجند غالبا . وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المتبعة وفتحت ابواب سوء الاستعمال(٣)

تلك هي الروح التي اورثها العثمانيون لابناء هذا القطر من الناحية الادارية ولئن صدق قول عزيز بك مدير الامن العام في السلطنة العثمانية - من ان ابناء سوريا على حبهم للالقاب والاوسمة يحبون الوظائف وتراهم يدفعون مئات الليرات في سبيل الحصول على وظيفة لا يكاد راتبها يبلغ الاربع او الخمس ليرات ، وان السوري يركض وراء الوظيفة قصد امرين : الاول الاثراء من وراء الوظيفة ، باعتبار ان المال الذي دفعه ثمن الوظيفة لمن هو اكبر منه يوجب عليه ان يحمل على تحصيله من الشعب باية صورة كانت . ولهذا تراه لا يهتم بالوظيفة الا بامر الحصول على المال ولا يهمه قام العدل ام حل مكانه الظلم .

---

(١) - كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ص ٣٢٩ .

(٢) - G. Samné , La Syrie, p. 54

(٣) - كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ص ٣٢٦ .

والامر الثاني هو حصوله على مركز لمناوئة خصمه او للحصول على جاه اذا كان له ثروة ، (١). لعني× اعيد ، اذا صدق هذا الوصف على الموظف السوري فما ذلك الا لان هذا القطر كان يقتسما من تلك الامبراطورية الواسعة يخضع لقوانينها ويسري عليه ما يسري على بقية اجزائها اقاليمها

غير ان الاسباب لا تبدل الواقع وهو ان سوريا لما انفصلت عن الامبراطورية العثمانية كانت تشكو من سوء حال ادارتها من وجوه عديدة ، اغلبها يعود الى فساد الاخلاق المنعكس في تفشي الرشوة وانعدام المسؤولية وعدم الالتفات الى القوانين .

كان العهد الفيصلي قصير الحياة وكان اهتمام اولى الامر منصرفا في خلاله بالدرجة الاولى الى ناحية السياسة الخارجية لتركيز دعائم الاستقلال وتوطيدها . لذلك لا يمكننا ان ننسب اليه اي اثر كبير على حياة هذه البلاد الادارية . وجل ما تم في ذلك العهد هو ان كبار الموظفين الاتراك قد حل مكانهم من كان دونهم درجة من ابناء سوريا . ثم احدثت بعض المراكز والدوائر في جهاز الدولة مما كان يتطلبه وضع سوريا الجديد كدولة مستقلة قائمة بذاتها . اما ما عدا ذلك فكل شيء كما بقي كما كان في ايام العثمانيين . اي على اساس نظام الولايات ولم يحدث اي تبديل جوهري في ادارة الاقاليم (٢) .

هكذا كان شأن الادارة يوم دخلت سوريا في عهدة الانتداب الفرنسي وبذلك اصبحت خاضعة للنظم والقوانين التي اخذ يصدرها المفوض السامي لاجل تنظيم البلاد على الشكل الذي يرتئيه ويتفق مع مهمة الدولة المنتدبة في هذه الربوع .

ان دراسة الجهاز الاداري والاساليب التي كانت تتبع فيه ابان سيطرة الفرنسيين على هذا القطر تحتاج الى امعان دقيق ودراية واسعة في امور الادارة لكثرة ما طرأ من تعقيد على هذا الجهاز ولكثرة ما صدر من قرارات طالما اصطدمت بغيرها دون انتباه المشرعين . وان في مثل هذه الدراسة الواسعة لفتح عميم يظهر بوضوح اهم الاسباب التي نشأت عنها الفوضى الادارية التي تتخبط فيها دوائر الدولة السورية في هذه الايام . غير ان ذلك لا يتيسر لنا في مثل هذا العرض البسيط ، لهذا نكتفي بالتنويه الى التبديلات الاساسية التي حدثت في ذلك العهد مع تبيان المساوئ والاضرار التي نشأت عنها .

---

(١) — عزيز بك ، سوريا ولبنان في الحرب العالمية الكبرى ، ص ١٢٠

(٢) — P. David, Le Congrès Syrien, p. 24

لم يحدث الفرنسيون اى تغيير جوهرى فى النظم الادارية التي كانت متبعة فى هذا القطر ابان العهد الفيصلي والتى جاء اغلبها من العهد العثماني ، بل ظل نظام الولايات قائما كسابق شانه ، وجل ما فى الامر هو ان اساليب الادارة كانت تتبدل وتتكيف حسب التقسيمات التي يخلقها الفرنسيون فى البلاد السورية (١). فكانت الدولة المركزية تؤمن بواسطة الترتيبات القديمة التي تبدأ بالوالي كحاكم للولاية فالمتصرف كحاكم للسنجق ثم يأتي بعده القائمقام فى القضاء والمدير فى الناحية . ولقد زال مركز الوالي فى العهود الاولى وحل مكانه الحاكم العام او رئيس الدولة يوم كانت سوريا مقسمة من الناحية الادارية والسياسية الى عدة دويلات . على ان هذا الامر هو من الاشياء العرضية ، لان اسس الادارة الاقليمية لم تتغير حتى اليوم ولم تفكر الدولة المنتدبة باصلاحها فى اى وقت من الاوقات (٢) اما التغييرات الاساسية التي احدثها الفرنسيون فانها تتناول الهيئات التنفيذية العليا التي كانت تتبدل من آن لآخر وفقا للسياسة التى كانت ترمى الى تجزئة هذا القطر وتقطيعه الى هؤلاء دويلات صغيرة طالما تبدلت فى اوضاعها الدستورية . فكانت يوما تستقل اداريا وماليا وآخر تستقل سياسيا ومرة اخرى تتوحد فى شبه دولة يسيطر عليها الفرنسيون .

هذه السياسة كانت تستدعي اصدار قرارات بين وقت واخر لتحديد صلاحيات السلطة المركزية وتبيان علاقاتها بالنسبة للاقاليم وبالنسبة لعمال الانتداب . وكثيرا ما كان بعض هذه القرارات يصطدم بالبعض الاخر لقلة الانتباه وانعدام التفصيل والوضوح (٣)

كان لكل من تلك الدويلات التي خلقها الفرنسيون رئيس اداري يحمل لقبا يختلف باختلاف المناطق . ففي منطقة العلويين مثلا كان يدعى " بالحاكم " وكان فرنسيا يعين بمرسوم من المفوض السامي . وهكذا كان شأن منطقة جبل الدروز الى ان تم الحاق هاتين المنطقتين ببقية اجزاء سوريا اثر معاهدة سنة ١٩٣٦ (٤) . اما دولة سوريا التي احدثت بمرسوم سنة ١٩٢٤ من قبل المفوض السامي (٥)، فكان رئيسها من ابناء البلاد وكان يلقب برئيس دولة سوريا ، وهو الوحيد الذى كان ينتخب من قبل هيئة تمثيلية شرط ان يكون انتخابه موافقا عليه من قبل المفوض السامي .

---

(١) W. de Saint Point, La Vérité sur la Syrie, p. I4I

(٢) Rabbath, Evolution politique ... p. I66

(٣) — من مقابلة مع الدكتور عبد الرحمن كيالي

(٤) — يجب ان نلاحظ بان منطقتي العلويين وجبل الدروز ظلتا مستقلتين من الناحيتين الادارية والمالية ولم يلغ هذا الاستقلال الا مؤخرا من قبل المجلس الحاضر .

(٥) — راجع قرار المفوض السامي رقم ٢٩٨٠ الصادر فى الخامس من كانون الاول سنة ١٩٢٤ .

ان السلطة الدستورية والصلاحيات التي كان يتمتع بها هؤلاء الرؤساء كانت تختلف اختلافا بسيطا في مدى نفوذها لانهم جميعا كانوا خاضعين لمراقبة المفوضية العليا وموافقة الممثل الاعلى لفرنسا في هذه البلاد . فكان عليهم ان يشرفوا على سير الادارة وان يهيئوا الموازنة وان يحتفوا بدراسة المشاريع المختلفة لعرضها على المجالس التمثيلية للموافقة عليها . ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان مصالح الدولة ودوائرها كان يتغير عددها حسب الظروف وتبعا لما يحدث من تطورات وتقلبات في سياسة الفرنسيين تجاه الاوضاع الدستورية في سوريا (١).

بجانب هذا النوع من الادارة المركزية خلق الانتداب في هذه البلاد دوائر اخرى يسيرها موظفون فرنسيون وكانت الغاية منها تنفيذ سياسة الدولة المنتدبة والاشراف على مرافق هذا القطر كافة . وذلك لان الفرنسيين في سوريا لم يكتفوا بحق التفرد بالتشريع واصدار القوانين التي يسير بموجبها في جهاز الحكومة الاداري ، بل تدخلوا عمليا بشؤون الادارة من صغيرها الى كبيرها بواسطة مستشاريهم وموظفيهم العديدين لدى السلطات المحلية . ولعله جدير بالذكر ان هذه الوضعية من الناحية الادارية لم تتبدل الا تبدلا طفيفا بعد ان اصبح لهذا القطر مجلسه النيابي في الفترتين اللتين سبقتا مجلس سنة ١٩٣٦ ، الذي جاء اثر المعاهدة التي تمت بين فرنسا وسوريا . كذلك لم يجر اي تعديل جوهري بعد تلك المعاهدة وابان انعقاد ذلك المجلس الوطني سوى ان تلك التقسيمات السياسية قد زالت واصبحت سوريا بعدها تدار من قبل حكومة مركزية واحدة . اما النظم الادارية العامة بمصالحها وقوانينها فانها ظلت ما عدا تغييرات طفيفة ، كانت تحدث بين آن واخر ، كما كانت في سابق عهودها .

وهكذا تجد ان الجهاز الاداري زاد تعقدا وكثرت مشاكله ابان عهد الانتداب عوضا عن ان يصلح ، وزاد من تلك الاثار السيئة التي خلفها العثمانيون لهذا القطر وذلك لان الفرنسيين لم يتعمدوا اصلاح الادارة في الاقاليم بل تركوها — مع تغييرات بسيطة — كما ورثتها البلاد عمن سلفهم في حكمها . ثم زادوا الطين بلة بتلك التغييرات والتبديلات في حياة البلاد الدستورية التي كان يرافقها دوما تغيير وتبديل في الاجراءات والصلاحيات وطرق التنفيذ . ولا شك ان ذلك يرجع نوعا ما الى كثرة التغييرات في المفوضين السامين التي كانت تحدث طوال عهد الانتداب (٢)

---

(١) Rabbath, Evolution politique ... p. I65

(٢) — لقد تقلب على حكم سورية خلال عهد الانتداب احد عشر مفوضا ، كل منهم له نزعته الحزبية الخاصة ومذهبه السياسي الخاص .

ولم يقتصر الامر على تغيير المفوض بل كان يتناول الخطة والنهج فى ادارة شؤون البلاد . زد على هذا ما احدثوه من تضخم فى عدد الموظفين بسبب تقسيمهم سوريا الى عدة دويلات ولكثرة ما اوجدوه من المصالح والدوائر بغية تدخلهم فى شؤون البلاد عليا وتسلطهم عليها . فقد كانت ولايات دمشق وبيروت وحلب وسنجق لبنان والقدس ، كلها تدار فى ايام العثمانيين (١٩١٤) من قبل ٣٥٠ موظفا . اما فى عهد الانتداب فان الاجزاء التي كانت تابعة لسيطرتهم فقط كان فيها ما يقارب ٤٠٠٠ موظفاً (١).

واذا علمنا بانه لم يكن ليتم امر فى دوائر الحكومة دون توقيع صلاح الانتداب وتدخلهم ، عند ذلك ندرك ان البيروقراطية كانت متفشية بصورة فظيعة وانها كانت من اهم مشاكل الادارة آنذاك . فان انجاز مشروع بسيط فى دوائر الدولة كان يتطلب وقتا طويلا وتوقيع شتى لكثرة ما كان يمر عليه من دوائر . هذا عدا عن انه كان ينفذ محورا مبدلا بسبب الاقتراحات العديدة التي يحدثها فيه من يمر عليهم من الموظفين .(٢) .

وعلاوة على كل ما تقدم فان الادارة فى عهد الانتداب ظلت تشكو من انعدام الاخلاق المتينة والكفاءة ، وكانت الرشوة شائعة وكذلك سوء الاستعمال . ويؤكد البعض بان هذه الادوار كانت على حال اسوأ من العهد العثماني فى ظل الانتداب (٣) . والسبب فى ذلك يرجع الى ان عمال فرنسا فى هذا القطر لم يبالوا فى تلك الامور ولم يبذلوا اى جهد فى القضاء عليها ، بل كانوا على العكس من ذلك يشجعونها بسلوكهم الطريقة نفسها .

وكثيرا ما كان يعود الموظف الفرنسي الى بلاده وحملا بالاموال ~~على العكس من ذلك~~ . مع العلم بان راتبه لا يمكن ان يدر عليه تلك الارباح (٤) . وليس فى تصرف اولئك الموظفين ما يدعو الى الغرابة ، فان اغلبهم كانوا على حد تعبير "بوانكاره" " ممن اخفقوا باعمالهم فى موطنهم الاصلي (٥) . وقد لاحظت "اليزابث مكالوم" هذا النقص بقولها : " ان العمال الاداريين الذين كانوا تحت تصرف الدولة المنتدبة فى سوريا لم يشكلوا هيئة متجانسة متصفة بالخبرة والاقتدار ، وذلك لتعدد مشاربهم وتنوع اجناسهم ، بل كانوا من النمط دون الوسط الذى لا يصلح لامثال تلك المهام الجسيمة التي كانت تلقى على عاتقهم فى هذه البلاد (٦) .

---

(١) V. de Saint Point, p. 72; 73

(٢) Rabbath, Evolution Politique, p. II0, I67

(٣) F. Mufarrig, Syria & Lebanon under the French Mandate, p. 249

(٤) Elisabeth, P. Maccallum, The Nationalist Crusade in Syria, p 221

(٥) R. Poincaré, Revue des Deux mondes. 15 Oct, 1921.

(٦) E.P. Maccallum. P. 236.

ان فقدان الاهلية وانعدام المسؤولية وتفشي الرشوة ثم التضخم في عدد الموظفين ، كما وان هذه البيروقراطية الناتجة عن مضاعفة الاعمال في مصالح الدولة تعد من اهم المشاكل التي خلفها الفرنسيون للقطر السوري من الناحية الادارية هذا فضلا عن المشاكل المتعلقة بالنظم والقوانين بحد ذاتها . وعلى هذا فاننا نجد بان مشاكل الادارة في سوريا قد زادت تعقدا ودب فيها الفساد الى درجة اعمق مما كانت عليه يوم فصلت هذه البلاد عن الامبراطورية العثمانية . وسنسعى الان لتبيان هذه الامور كما تظهر لنا في الوقت الحاضر مبتدئين بعرض موجز للجهاز الاداري مع الاشارة لتحسين الصلاحيات والى طرق الاجراءات المتبعة فيه .

ان رئيس الادارة المركزية في سوريا هو رئيس الجمهورية ، وهو الممثل الاعلى للسلطات التنفيذية في الدولة ، لذلك فهو يتمتع بثلاثة وظائف اساسية :

١ = يقوم بتنفيذ القوانين : ووظيفته هذه مستوحاة من الدستور كما جاء في مادته ٧٢ القائلة : " ينشر رئيس الجمهورية القوانين بعد موافقة المجلس النيابي عليها وبدون ان يدخل عليها اي تعديل كان ولا يمكنه ان يعفي احدا من التقيد بهذه القوانين ."

٢ = التعيين والعزل : " ان رئيس الجمهورية يعين ويعزل عمال الخدمات العامة عندما لا ينص القانون نفسه على اصول اخر للتعيين او العزل " . على اننا نرى ان هنالك عددا كبيرا من القوانين يعطي صلاحية رئيس الجمهورية في التعيين او في العزل الى الوزراء او الى المحافظين او القائمقامين او الى بعض كبار الموظفين .

٣ = تأمين سير الخدمات العامة : ايجاد الجهاز الاداري المنوط به تسيير هذه الخدمات العامة ، وتوزيع الصلاحيات المتقابلة بين العمال الاداريين . ولرئيس الجمهورية ايضا صلاحية المداخلة رأسا او بواسطة العمال الاداريين وممارسة الصلاحية الوصائية على الخدمات العامة المحلية التابعة للدولة .

ولكن هذه السلطات محددة في اربع حالات مهمة :

١ = المادة ٧٦ من الدستور السوري " ان كل قرار يتخذه رئيس الجمهورية يجب ان يشترك معه بالتوقيع عليه الوزراء المختصون " .

٢ = القانون يحدد هذه الصلاحية الادارية ايضا ، اذ انه كما رأينا في كل مرة يعطي القانون صلاحية او توزيع صلاحية ليس لرئيس الجمهورية ان يغير ويبدل

فى هـذه الصلاحيات .

٣ = ان سلطة الرئيس الادارية محددة ايضا بمعنى انه مضطر لمراجعة المجلس النيابي قصد اخذ كل الاعتماد اللازم ليتمكن من ممارسة تسيير الخدمة .

٤ = واخيرا ان صلاحية رئيس الجمهورية تحدد بالاحترام المتوجب نحو الحقوق غير المكتسبة .

الى جانب رئيس الدولة يوجد مجلس الوزراء المعين من قبله وفقا للاصول الدستورى المتبع . والوزارة هي شعبة من الادارة المركزية مفوضة من قبل رئيس الجمهورية بصورة دائمة لادارة اعمال الدولة . وسيقتصر بحثنا فى هذا الباب عن صفة الوزراء الادارية .

١ = ان للوزراء صلاحية تشكيل وتنظيم الخدمات فى نطاق اعمالهم . فبامكان الوزير ان يصدر البلاغات الوزارية العائدة للخدمات والتي هي بمثابة اوامر ادارية من الوزير الى مرؤسيه حسب تسلسلهم الرتبوى .

٢ = ان الوزير بصفته الرئيس الاعلى للعمال الاداريين حسب تسلسلهم الرتبوى يملك على مرؤوسيه السلطة التأديبية .

٣ = الوزراء يشتركون بصورة دائمة بواسطة التوقيع فى فعالية رئيس الجمهورية الادارية . فالوزير بتوقيعه يعطى لقرار رئيس الجمهورية الادارى نوعا من المشروعية ، وان نتائج هذه القرارات يتحملها الوزير فهو يتقبل بتوقيعه المسؤولية المترتبة على القرار الجمهورى بدلا من الرئيس الاعلى للدولة باعتبار ان رئيس الجمهورية غير مسؤول عن اعماله وفقا للمادة " ٨٢ " من الدستور القائلة بانه لا تبعة على رئيس الجمهورية بسبب اعمال وظيفته الا فى احوال خرق الدستور او الخيانة العظمى .

٤ = الوزراء هم عمال اداريون لتسيير دفة الحكم . فهم الرؤساء للعمال الاداريين التابعين لوزارتهم - ولكن هذه السلطة محدودة اذ انها يجب ان تخضع لمبدا اساسي فى القانون الادارى الذى ينص على ان هذه السلطة الرتبوية لا يصح ان تستعمل الا فى سبيل الخدمة العامة والصالح العام والا فعمل الوزير يكون دائما عرضة للابطال من قبل مجلس الشورى بعلة سوء استعمال الوظيفة .

ان تشكيل الوزارات في الاصول السوري بسيط جدا . اذ كان يكتفى حتى وقت قريب في بعض الوزارات برئيس ديوان ، وديوان مؤلف من عدة كتبة ويقوم مقام المدير مفتش عام . وفي البعض الاخر من الوزارات يعين مدير لها كمدير العدلية العام ومدير المصالح العقارية واملاك الدولة ، الا انه اخيرا احدث لكل وزارة مديرية عامة تقوم بشؤون الوزارة في سائر انحاء الدولة وتساعد الوزير في مهمته . والمدراء العامون في سوريا يقومون اسميا مقام معاون الوزير او امين السر العام في الدول الاجنبية .

هذه صورة موجزة عن الادارة المركزية التي تسيطر بحسب القوانين المعطاة لها على باقي التشكيلات الادارية في الاقاليم . ولكي تتمكن هذه السلطة المركزية من تنفيذ اوامرها وتسيير دفة الادارة في جميع انحاء البلاد . فقد قسمت سوريا الى محافظات واقضية ونواح بموجب قرار المفوض السامي ذي الرقم (٥) ل . ر . الصادر في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٦ ووفقا للجدول الملحق بهذا القرار .

ان السلطة الادارية في منطقة المحافظة ممثلة بشخص المحافظ وفي القضاء بشخص القائمقام ، وفي الناحية بشخص المدير .

١ - المحافظ هو ممثل السلطة المركزية ، فقانون المحافظة الحالي والقوانين السابقة تعتبر كلها بان المحافظ هو ممثل السلطة المركزية وخادم لارادتها ليس الا تعينه الحكومة بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء بناء على اقتراح وزير الداخلية بموجب المادة (١٢) من القرار ذي الرقم (٥) ل . ر . ولا يشترط لتعيين المحافظ سوى ان يكون سوريا متمتعا بحقوقه المدنية والسياسية وهذا ما يجعل الحكومة لا تتقيد باتخاذ المحافظ باي شرط من شروط الكفاءة والقدم . فالتعيين اذن كيفي تتصرف الحكومة بهذه الصلاحية حسبما توحيه لها اهواؤها . كذلك فان المحافظ عرضة للعزل بصورة كيفية يصدر عن رئيس الجمهورية دون ان يخبر الادارة المركزية عن تعليل قرارها . وهذه الصلاحية عدت كمعدل للاصول اللامركزي ولبسط نفوذ الادارة المركزية . وعلاوة على ما تقدم فان المحافظ يخضع كل الموظفين لقاعدة مجبورية الاقامة فلا يمكن له ترك محافظته بدون اذن صريح من وزير الداخلية .

اما صلاحياته واختصاصاته فلقد نصت عليها المادة / ١٦ / من القرار السالف الذكر بشكل عام ثم الحقت بعدة مواد اخرى تفصيلية . وبموجبها يعد المحافظ مسؤولا عن الادارة العامة في منطقته وهو عامل لجميع الوزارات ويكون

رؤساء دوائر المحافظة تحت سلطته واشرافه ضمن الاحكام المنظمة بموجبها الدوائر المذكورة وعلى هؤلاء ان يؤازروه ليسهلوا له تنفيذ مهمته .

في كل محافظة يوجد مجلس محافظة يتألف من وزير الداخلية او ممثل عنه في محافظة دمشق ، ومن المحافظ في المحافظات الاخرى ومن ثلاثين عضوا في محافظة حلب واربعة وعشرين عضوا في محافظة دمشق ، واثنى عشر عضوا في كل من المحافظات الاخرى . يعين هؤلاء وفقا للجدول الملحق بقرار المفوض السامي ذي الرقم / ٥ / ل ر . (الملحق ٣ و ٤) .

ان مجلس المحافظة ليس بمجلس دائمي بل يجتمع كل سنة في دورتين عاديتين والمدة العادية في كل دورة ١٥ يوما ويمكن للمحافظ بعد موافقة وزير الداخلية ان يدعو مجلس المحافظة لدورة استثنائية لا تزيد مدتها عن الثمانية ايام . اما صلاحيات هذا المجلس فلقد نصت عليها المادة / ٦٩ / من القرار السابق الذكر بشكل عام ، " يصدر مجلس المحافظة قراراتها في كل المسائل المتعلقة بالمحافظة ضمن نطاق هذا القرار وضمن القوانين والانظمة النافذة " . وهو عدا عن ذلك يبدي رايه كلما طلب منه المحافظ ابداء هذا الراي في امر ما . على ان جميع هذه الصلاحيات التي يعطيها القانون لمجلس المحافظة نجدها في مكان اخر مقيدة بارادة المحافظ ، فلقد جاء في قانون المحافظات : " بانه لايجوز للمجلس ان يتناقش الا في المسائل التي حقق فيها المحافظ او ابدى فيها رأيا سابقا ، وكل عمل يقوم به مجلس المحافظة خلافا لما ذكر اعلاه يعتبر باطلا ويعتبر وفقا للمادة /٢٨/ لغوا لا مفعول له .

٢ = القضاء : تنقسم المحافظة الى عدة اقضية عددها حدد بموجب الجدول الملحق في القرار النافذ الذكر ، يترأس القائمقام الذي يعين بمرسوم جمهوري بناء على اقتراح وزير الداخلية القضاء . وهو يشرف في منطقته على ادارة الخدمات العامة ويمثل في الوقت ذاته السلطة التنفيذية العليا والمحافظ . وهو بهذه الصفة مسؤول عن الادارة العامة في منطقته لدى المحافظ وعليه ان ينفذ اوامره وتكون مخابراته ومراسلاته مباشرة مع المحافظ وليس له ان يخابر الوزير مباشرة . ان قرار المفوض السامي ذا الرقم / ٥ ل ر / قد الغى المجالس الادارية في القضاء واستعاض عنها بما يسمونه " مجلس القضاء " . ويتألف هذا المجلس من اعضاء طبيعيين واعضاء منتخبين ووظيفته

ووظيفته ان يؤازر القائمقام في الامور العائدة للقضاء .

٣ = الناحية : عملا بقاعدة التسلسل الرتبوي يكون المدير في الناحية مسؤولا عن المديرية تجاه القائمقام ومحافظ المحافظة . يعين المدير من قبل وزير الداخلية بعد اخذ راي المحافظ والمديرون هم في النواحي عمال السلطة المركزية وجميع دوائر المحافظة . وهم بصفتهم هذه مكلفون ضمن نواحيهم باطلاع الاهالي على قوانين الحكومة واوامرها والاشراف على تنفيذها والقيام عند الاقتضاء باعباء الوظائف التي تنيطها بهم تلك القوانين والاوامر ، وهم بهذه الصفة ايضا مسؤولون لدى القائمقامين عن حسن ادارة ناحيتهم . وتقول المادة ١١٢ من القرار السالف الذكر بانه على المدير ان يدعو مرة واحدة في الشهر مختاري جميع القرى الى اجتماع يعقد برئاسته لدرس المسائل المتعلقة بالناحية .

بهذا تصبح لدينا فكرة بسيطة عن الهيكل الاداري القائم في سوريا مع نوع الصلاحيات المقسمة على جميع اجزائه حسب درجاتها وتسلسلها الرتبوي . بقي علينا ان نذكر شيئا عن الموظفين القائمين بصورة دائمة على تسيير الخدمات العامة وعن الطرق المتبعة في انتقائهم وتعيينهم الخ ... وذلك لكون الموظفين عنصر هام في جهاز الدولة الاداري وعلى صلاحهم ومقدرتهم يتوقف صلاح الجهاز وفعاليته .

ليس لدولة سوريا قانون عام شامل للموظفين فكل ما يتعلق بامورهم من تعيين وعزل وحقوق وواجبات منصوص عليها بشكل سطحي بسيط في قوانين وملاقات مبعثرة هنا وهناك .

١ = التعيين : ان المادة / ٧٥ / من الدستور السوري اعطت صلاحية التعيين لرئيس الجمهورية بقولها : " يعين رئيس الجمهورية الموظفين الملكيين والاداريين والقضاة ضمن الشروط المنصوص عليها في القانون " . على ان هذا التعيين يجب ان يكون دائما مقرونا بتوقيع الوزير المختص . وفي الحقيقة فان سلطة رئيس الجمهورية العامة في التعيين ليست كما هو الظاهر منها ، ولكن كثيرا من القوانين حسب التقاليد الدستورية اعطى الوزير او المحافظ او القائمقام وفي بعض الظروف بعض الموظفين الكبار مثل رئيس الجامعة حق تعيين الموظفين بالنيابة عن رئيس الجمهورية . وتلافيا لما يحتمل ان يقع من سوء استعمال لهذه الصلاحية المعطاة للوزراء ولبعض الموظفين فان القوانين والانظمة وضعت شروطا لممارسة هذه الصلاحية وهي بان لا يعين للوظائف الا من

توفرت فيه الشروط المطلوبة من اخلاص للوظيفة وكفاءة علمية وفنية حسب نوع الوظيفة . وهناك شروط اخرى تدور حول السن والجنس والقوة البدنية والسيرة الحسنة .

٢ = الترفيع : يأتي على شكلين في حكومة سوريه : ترفيع بنتيجة القدم ، وترفيع بنتيجة الانتقاء . وقد جاء في المادة ١٥ من القرار ذي الرقم / ١٣٥ / الصادر في ٢٠ اذار سنة ١٩٢٦ بانه لا يمكن قيد احد في جدول الترفيع ما لم يكن قد اتم سنتين على الاقل في الخدمة الفعلية ، هذا اذا كان الترفيع بطريق الانتقاء وثلاث سنوات فيما اذا كان الترفيع بنتيجة القدم . وطريقة الترفيع هو ان يرفع الوالي والمتصرفون والمديرون ورؤساء الدوائر الى الوزير المختص اقتراحاتهم بشأن الموظفين المتصور قيدهم في جدول الترفيع . ثم تؤلف لجنة خاصة تدعى " لجنة التصنيف " للاطلاع على جزادين كافة الموظفين الذين استوفوا شروط القدم المطلوبة لنيل الترقية واذا رأت اللجنة بعد النظر في الاضبارات ان يقترح ترفيع بعض الموظفين الذين لم يقترح تعيينهم من قبل رؤسائهم المباشرين رغما عن استيفائهم شروط القدم المطلوبة تنتظم على حدة قائمة باسماء هؤلاء الموظفين . اما لائحة التصنيف المتضمنة حسب الاهلية اسماء موظفي كل وزارة مقترح ترفيعهم بطريق الانتقاء فيقرها نهائيا الوزير المختص ولا يحق للوزير ان يضيف اسما على اللائحة المقدمة من اللجنة الانفة الذكر ولا ان يحذف منها شيئا .

٣ = العقوبات التأديبية : ان الموظف الذي يسيء الى وظيفته بعمل ما يخضع لسلسلة من العقوبات اصغرها التوبيخ واكبرها التنحية او الاحالة الى القضاء . وهذه العقوبات تكون من صلاحية الرؤساء المباشرين اذا كان الجرم صغيرا ومن قبل الوزير اذا كان الجرم اكبر اي اذا كان يتناول قطع الراتب لمدة تتجاوز الاربعة ايام او النقل من مكان لآخر . اما المعاقبة بتأخير الترقية والاحالة على الاستيداع والعزل فلا تكون الا من رئيس الدولة بناء على اقتراح الوزير المختص وبعد موافقة اللجنة التأديبية . وكل عزل لا يراعى فيه الاصول المنصوص عليه في الانظمة والقوانين يحق للمعزول حق المراجعة امام الغرفة الادارية من نوع دعوى التجاوز على حدود السلطة .

اما فيما يتعلق بحقوق الموظفين وواجباتهم فتجدها مبعثرة في قرارات وبلاغات عديدة وضمن انظمة دوائر الدولة المختلفة (١).

الى هنا نكتفي بعرضنا للجهاز الاداري في سوريا لان غايتنا هي ان نبين التشكيلات الرئيسية القائمة فيه وان نذكر بشكل موجز اهم الصلاحيات الموزعة بين دوائره . واهم الامور التي تتناول ملاك موظفيه . وقبل ان ننتقل في بحثنا لتبيان المشاكل الناتجة عن هذا النظام ، يجدر بنا ان نلاحظ امرا هاما ، وهو ان المشاكل الادارية التي تشكو منها دولة سوريا لا تنبثق عن فساد الانظمة فقط بل هناك تفاعل مشترك بين فساد الانظمة وفساد الاخلاق المنعكس كما اسلفنا مرارا في تفشي الرشوة وعدم وجود المسؤولية وضياع هيبة القانون ثم عدم تطبيقه واحترامه ، ولعل السبب الرئيسي في كلتا الحالتين يرجع كما بينا في عرضنا التاريخي الى الظروف الخاصة التي عرفتها البلاد خلال العهد الاولى من تاريخها الطويل .

والان نأتي الى دراسة هذه المشاكل ، فلا نجد بدا — مع ما لها من التفاعل المشترك — من ان نظهر المشاكل الناتجة عن فساد النظم على حدة ثم نعود بعدها الى اظهار المشاكل الاخرى الناتجة عن فساد الاخلاق وذلك اقرب للوضوح واسهل لتفهم الحقائق وادراكها .

١ — مشاكل التنظيم الاداري — يتبين لنا من دراستنا لنظام الادارة في سوريا بان التقسيمات الادارية القائمة فيه لا تستوجب اي انتقاد كبير فهي نوع شائع من انواع التقسيم الاداري لدى اغلب الدول ، ولولا وجود بعض الدوائر في الجهاز الاداري من التي لا لزوم لها وانعدام بعض الدوائر اللازمة الضرورية (٢) لحاجات هذا القطر ، لقلنا بان الادارة لا تحتاج الى اصلاح جوهري من هذه الناحية ، وانما كفيلة بتأمين سير الامور سيرا حسنا يعود بافضل النتائج على حياة البلاد وازدهارها . ان المشاكل

---

(١) — لقد استقيت المعلومات المتعلقة بالنظام الاداري الحالي من المصادر التالية :
أ — موجز الحقوق الادارية ، الجزء الاول ، تاليف احسان الشريف ،
ب — مجموعة القوانين والقرارات للدولة السورية ، لصاحبها محمد توفيق جانا مخاصة الجزء الخامس والسادس /
ت — الدستور السوري
ث — بالاضافة الى اتصال شخصي بفؤاد شباط مدير الداخلية في الجمهورية السورية .

(٢) — من مقابلة مع فؤاد شباط مدير الداخلية في الجمهورية السورية .

الادارية الناتجة عن النظم والقوانين لا تظهر اذن في التنظيمات الادارية التي تنص عليها تلكالقوانين وانما تظهر في النواحي التالية :

آ = في الصلاحيات التي توزعها بعض القوانينوالقرارات على رجال الدولة والموظفين، وكذلك في طرق انتخاب المجالس الادارية والصلاحيات المعطاة لها .

ب = في عدم وجود نظام عام للموظفين يحسن اختيارهم ويؤمن سير خدماتهم بشكل فعال ، ثم يحفظ لهم حقوقهم وامانيهم .

ج = في طرق الاجراءات التي تستلزمها العرائض والمشاريع على اختلاف انواعها كي تصبح نافذة المفعول .

وللدلالة على ذلك يجدر بنا ان نتطرق الى كل من هذه النواحي لنتبين بعض وجوه النقص البارزة فيها . فنبدأ بالناحية الاولى فنأتي اولا على ذكر صلاحيات الوزراء لكونهم يمثلون الرئاسة العليا للجهاز الاداري من الناحية العملية ، وذلك تبعا للمادة / ٨٢ / من الدستور السوري التي تجعل المسؤوليةمن نصيب الوزير المختص ، وتعفي الرئيسالاول تبعة المسؤولية من اي عمل يأتيه .

ان سوريا تشكو من عدم الاستقرار في مشروعاتها ومرافقها وفي حياتها بوجه عام ، ولعل ذلك يرجع في الغالب الى ان سلطة الوزير في هذه البلاد محتاجة الى تعديل وتحديد وتفسير . فلقد درج الوزراء في شتى العهود على الاستئثار بكل صغيرة وكبيرة من شؤون وزارتهم ، فتركزت بذلك السلطة كلها في يد الوزير واصبح اكثر الذين حوله من الموظفين لا اكثر من اتباع ينفذون تعليماته واشاراته واوامره ونواهيه . والسبب في ذلك يعود الى غموض الدستور والقوانين الادارية منحيث صلاحيات الوزير وحقوقه من جهة ، والى التوجيه الانتدابي المنبثق عن مصالح المستعمر المهيمنة فينظم الحكم مما جعل حكومات ذلك الدور تتوسع في صلاحياتها ، وتضيف اليها ما تراه مطابقا لطروفها من جهة اخرى ولقد نشأ عن هذه الحال مساوئ عديدة اهمها استمرار المركزية الشديدة في الاعمال الحكومية مما اشاع في حياة البلاد العقم والجمود والاضطراب ، ومما ادى ايضا الى بقاء اكثر المشروعات الجديدة النافعة مطمورة في زوايا النسيانوالاهمال ، يبتدئ في تطبيقها وزير ما ولكن الوزير الذي يخلفه لا يلبث ان يعيدها الى سيرتها الاولى لا لشيء الا انها من عمل سواه .

ان طبيعة الجهاز الاداري تقتضي توزيع اقسامه المختلفة على الخبراء الاخصائيين

فتركيز السلطة في يد الوزير وتداخلاته حتى في المسائل الفنية تحول دون هذا التوزيع الضروري المفيد . لذلك فان الاصلاح الاداري في سوريا يستوجب مما يستوجبه من امور عديدة، نزع هذه السلطة المطلقة من ايدي الوزير لتوزع على الموظفين الفنيين الدائمين لا من وكلاء وزراء وكبار موظفين . لقد حدد العلامة Lowell الصلة بين الوزير المؤقت والمدير الدائم اذ قال : " ان الوزير هو الرئيس السياسي والعنصر غير الفني في هذه الشركة التي هي الوزارة ، اما المدير فهو رئيسها الاداري والعنصر الفني فيها . وظيفة الرئيس ان يجعل الاداة الادارية متفقة بالاتجاه مع الرأي العام السائد وان يدافع عنها ويقاوم ما يجده فيها من جمود وسأوئ ، ووظيفة المدير واعوانه ان يعطوا المشورة للوزير في المسائل التي يتطلبها وان يحولوا بينه وبين الوقوع في الاخطاء (١). فهؤلاء هم الذين يشرفون على تنفيذ خطط الوزارة ومشروعاتها العامة بصرف النظر عن التغييرات السياسية والتقلبات الوزارية . على الوزير ان يتفرغ باعتباره الرئيس الاعلى لوزارته للاشراف على سير هذه الاعمال وتوجيهها التوجيه الصحيح وتمثيلها في البرلمان . اما تصرفات الوزارة في جميع المسائل الفنية فتكون المسؤولية فيها كلها على وكيلها الفني . وبذلك يزول ذلك الركود الذي نلمسه في حياة البلاد نتيجة لعدم الاستقرار الحكومي ولتركيز السلطة في يد وزير قد تذهب به تيارات السياسة بعد توليه مركز الوزارة بقليل . لهذا يجب ان تحدد صلاحيات الوزير الادارية وان ينص عليها بالصراحة والتفصيل في الدستور والقوانين . كما وانه يجب ان توسع صلاحيات المدير العام ، لان القوانين الحاضرة لا تعطيه في الغالب سوى اختصاصات ثانوية كرئاسة مجلس التأديب ولجنة شؤون الموظفين وبعض اللجان الفنية الاستشارية ، ومركزه على وجه الاجمال غامض وشاذ من الناحيتين الدستورية والادارية .

وننتقل الان الى الادارة في المحافظات والاقضية وما يتبعها . نجد اولا ان المحافظ الذي يمثل السلطة المركزية في محافظته ليس على وجه العموم الا آلة بيد الوزير المختص . فالمحافظ كما يقول احسان الشريف ، لا يتمتع تجاه اوامر الوزير بأي طريق قانوني للمراجعة . فهو غير مأذون بمناقشة اوامر الوزير وكلما يطلب منه هو الاطاعة المطلقة (٢) . عدا عن ذلك تجد ان تعيين المحافظ وعزله امر كيفي ، اذ

---

(١) — Le Droit Administratif, Edited by "Librairie du Recueil Sirey", p. 12 .

(٢) — احسان الشريف ، الحقوق الادارية ، ص ١٦٥ —

لا يشترط لتعيين المحافظ حسب المادة/ ١٢ / من القرار / ٥ / ل.ر.و الا ان يكون متمتعا بحقوقه المدنية والسياسية ، وهذا ما يجعل الحكومة لا تتقيد في انتخاب المحافظ باي شرط من شروط الكفاءة والقدم . على ان القرار السابق الذكر اراد ان يمنح المحافظ بعض الصلاحيات لتخفيف شدة المركزية ، واهم هذه الصلاحيات هي ان المحافظ نيابة عن رئيس الجمهورية يحق له ان يعين عددا كبيرا من الموظفين في محافظته عملا بالمادة / ٣٠ / من القرار المذكور . وهذه الصلاحية تعد من اكبر التطبيقات للاصول اللامركزي في الدولة . غير انها في الوقت نفسه تجعل المحافظ يتدخل في كثير من المسائل العائدة لمحافظته كقضايا التعليم والاستملاكات ، فينتج من ذلك تصادم في الصلاحيات بين مختلف الدوائر(١) هذا التصادم الذي يعد من ابرز مساوىء الادارة في سوريا .

اما مجلس المحافظة فان الفكرة التي سادت تشكيله هي خليطة من فكرة التعيين والانتخاب المحدد في نطاق معين من الناخبين ، ومن اللامركزية الادارية والطائفية والبدوية . فهذه التشكيلة لا تنطبق على اية فكرة علمية او فنية . وقد استهدف المشرع فيها ان يؤلف بين مجموعة من المتناقضات ، فلم يوفق ، هذا فضلا عن ان صلاحيات هذا المجلس مقيدة بادارة المحافظ وبسيطة جدا (٢). نعم ان جميع الدول تختلف في تحديد اختصاصات هذه المجالس تبعا لاختلاف الظروف والتقاليد . ولكنها جميعا تلتقي في منحها اقصى ما تتحمله من امور محلية عامة . اما القرار السالف الذكر فقد اخذ بالشمال ما اعطى باليمين وغل يد هذه المجالس بما هو اشد وطأة وتعقيدا من النظم المركزية . وهكذا فان نظام المحافظات القائم لا يحقق معنى اللامركزية الحديثة ولا يرجى منه اى نفع لمصلحة الاقليم من هذا الخصوص . وان هذا الامر ليتبين لنا بوضوح اكثر حينما نعلم ان رئيس القضاء وهو القائمقام يخضع كالمحافظ لاهواء السلطة المركزية في تعيينه وعزله . وان مجلس القضاء لا يختلف باختصاصاته عن مجلس المحافظة ان لم يكن مقيدا الى درجة اكثر بسبب نفوذ ممثلي السلطة المركزية الوهمي في المدن الصغيرة والقرى التابعة لها (٣) .

---

(١) – احسان الشريف ، ص ١٦٦

(٢) – احسان الشريف ، ص ١٧٠

(٣) – يتمتع ممثلو السلطة المركزية في الاقضية والنواحي بسلطان كبير ناتج عن الهيبة التقليدية التي يحاطون بها والتي تعد من بقايا العهد العثماني .

الموظفون :- ان الغرض الاساسي من تعهد الدولة للاعمال العامة انما هو ضمان سير هذه الاعمال على الوجه الاكمل وهذا لا يكون الا اذا توفرت جميع الشروط والضمانات المطلوبة من القائمين بها بالتدقيق في اختيارهم بتأمينهم وتأمين اسراتهم ضد الصدف القاسية ميقول Sidney Webb " ان الحكومة البريطانية لا تدار بالواقع عن طريق مجلس الوزراء مجتمعا ولا عن طريق الوزراء المنفردين ولكن بواسطة الموظفين الدائمين وحدهم . قد كان من حسن حظ بريطانيا انها وجدت في القرن الماضي طبقة من الموظفين على درجة عظيمة من النزاهة والكفاءة . وهؤلاء الموظفون يطمعون كما يطمع باقي المواطنين في الحصول على حياة هادئة آمنة تتناسب مع واجباتهم وخطورة شأنهم "(١) فاين هذا من حالة الموظفين في سوريا ؟.

لقد ظهر لنا من خلال عرضنا للقوانين التي تنص على كيفية انتقاء الموظفين وعزلهم وما يترتب عليهم من حقوق وواجبات ، ان هذه القوانين عدا عن كونها موزعة مبعثرة هنا وهناك ، لا تفي بالغرض المطلوب منها من وضع ملاك عام وشامل يفصل بشكل متلائم منسجم جميع هذه الامور . وهناك مشكلة اخرى لا تقل اهمية عن هذه الفوضى السائدة في تنظيم ملاك الموظفين وهي ان الموظف في سوريا يجد نفسه على الدوام عرضة لاهواء الرؤساء والوزراء وذلك بسبب ما نصت عليه بعض القوانين من وضع مسألة التعيين والترقية والنقل والعزل بايدي هؤلاء دون ان تشير بوضوح الى الضمانات التي تحفظ للموظف حقوقه ، وبسبب سوء الاستعمال الذي يأتي من التدخلات السياسية في شؤون الادارة . فالاصلاح من هذه الناحية يجب ان يتناول اولا ، مسألة حفظ الجهاز الاداري من نوازع السياسة وتقلباتها . ولا يتم ذلك الا بايجاد لجان خاصة حيادية تتولى امر التعيين والترقية والعزل . فان معظم الدول قد وضعت هذه الامور في ايدي لجان خاصة مستقلة . وبهذا ضمان لتحقيق العدالة وابعاد التوظيف عن اعاصير المباهمة الحزبية وتقلباتها الكثيرة . وبهذا يشعر الموظف انه مدين لكفاءته ونزاهته ، وتخلق الثقة والكرامة في نفسه . ولكن طريقة كهذه لا تثمر الا اذا كانت محكمة والايدي التي تتولاها نزيهة وبعيدة عن كل تأثير . وثانيا - يجب ان يوضع ملاك عام شامل مفصل للموظفين يبين طرق انتقائهم والوسائل التي تتبع في معاقبتهم . كما انه يحدد حقوقهم وواجباتهم بشكل واضح بعيد عن الغموض .

---

(١) Le Droit Administratif, Edited by ,"Librairie du Recueil Sirey ". p.

بعد هذا العرض لاهم مشاكل الادارة وما تتطلبه من اصلاح من الناحية التنظيمية يجدر بنا ان نشير الى طرق الاجراءات المتبعة فيه لكونها تلخص كل ما سبق من حيث النتائج وتجعلنا ندرك مدى عقم هذا النظام الادارى الذى لا يحقق الغاية من وجوده ، الا وهي تأمين سير الخدمات العامة بشكل يعود باكبر نفع ممكن على الافراد وبهدف للامة وسائل التقدم والعمران . ولعل خير وسيلة نعتمدها للتنويه عن هذا الامر هي ان نأتي بالقول التالي لاحد نواب سوريا فى جلسة من جلسات البرلمان، حين المناقشة فى موازنة وزارة المالية : " ليس فى البلاد من لا يشكو من المركزية الضيقة فى جميع الدوائر وليس من لا يشكو من تعقيد المعاملات وطوافها على اكثر عدد ممكن من الدوائر بلا مبرر . فان اى عريضة فى سوريا مهما كان نوعها واى مشروع يقدم للحكومة يستوجب الطواف على دوائر عديدة لا لزوم لها ، فيؤدى هذا الامر الى الابطاء فى اغلب المشاريع النافعة ان لم نقل اهمالها كما انه يسبب دائما عرقلة اعمال الناس وبالتالي تذمرهم المستمر من دوائر الدولة ولا شك ان هذه الحال مسببة عن عدم توزيع الصلاحيات توزيعا صحيحا رائده التبسيط والتسهيل " (١) .

٢ - المشاكل الناتجة عن فساد الاخلاق :- لقد تبين لنا حتى الان ان بعض مشاكل الادارة فى سوريا ناتجة عن فساد النظم بوجه عام . غير ان هذه المشاكل النظمية والقانونية لا تعد شيئا يستحق الذكر بالنسبة لتلك الادواء التي ورثتها الادارة السورية عن الماضي من الناحية الاخلاقية والتي تقف حجرة عثرة امام اى اصلاح ادارى لا يعمد فى بادىء امره الى القضاء عليها من بيد من حديد . ان تفشي الرشوة وشيوع الاختلاس وانعدام المسؤولية وعدم احترام القوانين ثم تلك المفاسد المداخلات السياسية فى شؤون الادارة التي يأتي بها النواب والوزراء فى سبيل مصلحتهم الذاتية امور لم تعد خافية على احد من ابناء هذا القطر الواعين . وليس على المرء الا ان يتصفح صحف البلاد اليومية ، او ان تكون له علاقات فى دوائر الدولة السورية لكي يتحقق من صحة هذا القول ويتأكد بأن الشواهد التي تدل عليه دلالة صريحة تتكرر فى كل يوم . وهكذا فان مشكلة الادارة فى سورية ليست ناشئة عن فساد النظم وانعدام الكفاءات فقط ، بل عن فساد الاخلاق ايضا . ولعل تفاعل هذين السببين الجوهريين وتشابكهما هو الذى جعل هذه المشكلة من المسائل المعقدة الصعبة

---

(١) - راجع جريدة النذير الصادرة فى حلب بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٤٦ عدد ١٨٦٨ .

التي تتطلب بناء جديدا وحلولا اساسية ، لان الاصلاحات الجزئية لا يمكنها ان تعود على البلاد بجهاز اداري فعال قوي . فالمركزية الضيقة والبيروقراطية وعدم شمول القوانين وانسجامها ، جميع هذه الامور التي تعانيها الادارة في هذا القطر مع ما تعانيه من ضعف الكفاءات وفساد الاخلاق عند الموظفين لا يمكن ان تصلح بالترقيع بواسطة قوانين منفردة يصدرها المجلس النيابي بين حين وآخر . او بواسطة المراسيم الاشتراعية التي اصبح من حق حكومة سوريا ان تصدرها بعد اليوم (١)، وانما بواسطة تشريع جديد عام شامل مفصل يأخذ بعين الاعتبار حاجات هذا القطر ومقتضيات التطور العالمية الحديث . ويجب على المشرعين الذين سيناط بهم وضع اسس الادارة السورية الجديدة ان يعلموا دائما ان نشاط الادارة وفعاليتها تتوقف عليها والى حد بعيد على المستوى الاخلاقي والمميزات المهنية التي يتصف بها الموظفون . لهذا فان طرق انتقائهم والوسائل التي ستتبع في معاقبتهم حين الايجاب ، كما وان التأمينات اللازمة لحفظهم عن الشطط ، يجب ان تكون واضحة ومستقاة من احدث النظريات وتجارب الامم الحية في هذا المضمار . جاء في تقرير لجنة التحقيق الاميركية للموظفين سنة ١٩٣٧ ان خير وسيلة لخلق نفر من الموظفين المقتدرين ذوي الاستقامة ،هي ان تخطو الحكومات خطوات واسعة لجعل الوظيفة حرفة محترمة يستطيع المرء ان يسلكها ويعتمد عليها مدى الحياة . وان يفتح باب التوظيف امام كل فرد مؤهل بالكفاءة والاخلاق . وتؤمن له فرصة الترقي في الخدمة الى مراكز اسمى وارفع (٢) وبذلك يتمكن هذا القطر من القضاء تدريجيا على فساد القائمين بادارة شؤون البلاد وتصبح الادارة السورية نشيطة فعالة تقوم بواجباتها خير قيام .

---

(١) – صادق المجلس النيابي السوري مؤخرا على قانون يخول مجلس الوزراء السوري حق اصدار المراسيم الاشتراعية في حالة عدم انعقاده . راجع جريدة "النذير" الصادرة في حلب.

(٢) – Better Government Personnel, Report of the Commission of Inquiry on Public Service Personnel, p. 3.

" ان استفحال الامراض التي تفتك بالامة ، وعمق الالام التي تحز في جسمها لم تعد تنجع فيها حيلة السياسيين مهما كانوا اذكياء بارعين. ولا بد لها من مناضلين مؤمنين يستمدون روح نضالهم واسلوبه من روح امتهم واخلاقها " .

ميشيل عفلق

خـــاتمـــة

ليس من الغريب ان يتساءل المرء بعد اطلاعه على كل ما عرضناه من المشاكل السياسية الداخلية في سوريا عما اذا كان هذا القطر يكون حقا دولة ذات طابع قومي ديموقراطي صحيح . فهو كما تبين لنا مفكك اجتماعيا من عدة نواح . فالطائفية ما زالت تفرق بين ابنائه وتجعلهم شيعا يختلفون في المبادئ والاهداف ووجود بعض الاقليات العنصرية رغما عن قلة اهميتها - يزيد في الانقسام السائد ويهدد كيان الوطن كلما اعتراه وهن او فتور . ثم ان التباين الاجتماعي والاقتصادي المنبعث من بقايا الاقطاعية في البلاد ، وتسلط هذه الطبقة المستثمرة على الفقراء من افراد الشعب واستئثارها في الحكم الذي تسيره طبقا لمصالحها الانانية كل ذلك يجعل هذا القطر في وضع لا يمت الى الديموقراطية الحقة بشيء . زد على كل ما تقدم ظاهرة اجتماعية اخرى لعلها تفوق سائر المشاكل اثارة لشعور الدهشة والاستغراب وهي ظاهرة يتفرد بها هذا القطر وباقي الاقطار العربية عن الامم الراقية كافة . فالنظام القبلي السائد عند عدد وافر من السكان يشكل نقصا واضحا في تطور البلاد ويعد ظاهرة خطرة وعقبة كؤود تحول دون نشوء التضامن الاجتماعي الصحيح .

ان جميع هذه المشاكل قد ورثتها سوريا بشكل خاص عن القرون الاخيرة التي اعقبت زوال اخر الدويلات العربية منها . ولم يفكر الذين سيطروا على مقدراتها طوال هذه المدة من الزمن الا في مكاسبهم ومنافعهم وكانت هذه المشاكل تزداد تعقدا كلما مرت عليها الايام . ومما زاد الطين بلة ان البلاد لم تعرف خلال تاريخها الاخير نظاما تربويا سليما ، فعوضا عن ان تكون المدارس والمؤسسات العلمية عاملا فعالا في القضاء على عناصر التفرقة والانشقاق كانت سببا مهما في توسيع هوة الانقسام وخلق جيل تائه لا يعرف نفسه تتقاذفه شتى الميول والنزعات .

ومن المشاكل التي ورثتها سوريا ايضا عن عهود انحطاطها المشكلة الادارية التي تظهر في فساد النظم وفساد القائمين على الحكم . فكان من العسير والحالة هذه ان

يصلح اى شيء فى وضع البلاد ، لان القوانين بحد ذاتها كانت مقرة لذلك الوضع هذا فضلا عن ان الصالح من تلك القوانين كانت تعبث به الايدى القائمة عليه وتتخذه واسطة لتنفيذ مآربها وتحقيق غاياتها .

ان بلادا هذا شانها لا تعطى فكرة صحيحة واضحة عن الدولة البرلمانية القائمة على اساس قومي ، اذ من الصعب ان نوجد حكما ديموقراطيا قويما حين لا يتجه ولاء الشخص بالدرجة الاولى الى الوطن الذى يعيش فيه ، بل الى الطائفة او الطبقة او العشيرة التى ينشأ فيها ، وحين تكون الانظمة والقوانين فى تلك الدولة العصية فى يد القائمين عليها ، وغريبة بحد ذاتها عن روح الامة ، لا تاتلف وحاجاتها ، ولا تؤمن لها التطور اللازم الذى يقتضيه الزمن ويتطلبه تجدد الحياة . ولا شك بان الفوضى وعدم الاستقرار اللذين يتصف بهما النظام البرلماني فى هذا القطر مسببان الى حد كبير من وجود هذه المشاكل التي ذكرناها ومن الدور الذى تلعبه فى حياة هذا القطر السياسية .

فالاحزاب المنظمة التي تسير بموجب البرامج المنبعثة عن حاجات الشعب والتي ترتكز بفلسفتها على الفكرة القومية الديموقراطية معدومة فى هذه البلاد ، ولا يجد احدنا الا منظمات هنا وهناك تجمعها فكرة طائفية او طبقية او نضالية (بالمعنى السلبي) وتعمل لمصلحتها قبل مصلحة الوطن وتطالب بالاثابة والمكافاة لاتفه الامور . ان النظام النيابي قائم فى فلسفته وصورته على التنظيم الحزبي الذى يلم شتات الشعب فى احزاب سياسية يضم كل منها جهود الافراد المتحدين فى الفكر والراى والنهج ويبعث بقادتهم والمفوضين منهم الى المجلس النيابي ليمثلوا حزبهم لا اشخاصهم . فاذا كان التنظيم الحزبي السليم مفقودا ، اصبح من العبث ان ننتظر قيام حكم ديموقراطي حقيقي يشابه ما نجده عند بعض الامم الغربية الراقية . والسبب فى انعدام الاحزاب السياسية الحقة حتى هذا التاريخ يعود فى الدرجة الاولى الى نقص الوعي الشعبي الصحيح والى التباين الظاهر فى المشاعر والاهداف عند ابناء الجيل الحاضر ، هذا التباين الذى ورثوه عن وضعهم الاجتماعي الخاص . وتقع المسؤولية فى الدرجة الثانية على عاتق الفئة الواعية من الشعب التى ما يزال اكثرها تائها هزيلا . ولا عبرة للقول بان السلطات

الحاكمة كانت وما تزال تعمل على قتل الاحزاب ، لان التاريخ قد اثبت بان المبدأ الصحيح اذا اعتنقته جماعة مؤمنة عاملة يسير قدما ولا يقف فى وجهه منع او اضطهاد .

ولا ريب عندى بان فقدان الاحزاب هو السبب الاول فيما نشاهده من خلاف مستمر بين الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية فى سوريه ، وبالتالى فى عدم الاستقرار فى حياة البلاد السياسية ، يضاف الى ما ذكرنا ان فساد قانون الانتخابات قد قذف الى المجلس النيابي بطائفة كبيرة من الجهال وشيوخ القبائل ، وهؤلاء لا يقدرون واجبهم ولا يعرفون ما يترتب على النائب تجاه الامة . فهم يتغيبون عن المجلس وكان لهذا التغيب اثره فى فقدان النصاب القانوني فى كثير من الاحيان ، ويتبع ذلك تأجيل الجلسة وبعدها تأخر سير العمل ونوم القوانين والمشاريع فى معدها . والوزراء يعرفون هذه القضايا تماما فهم لا يرهبون المعارضة ولا يداورون المجلس وانما يعمدون الى ترضية نفر مخصوص كلما اشتد عليهم الضغط واثير المجلس عليهم ، وهكذا يجتازون الازمات ويتمتعون بثقة المجلس تمتعا غير طبيعي . وفضلا عن كون قانون الانتخاب يقذف الى المجلس النيابي بفئة كبيرة من الجهلة الاقطاعيين وشيوخ القبائل فانه قائم على اساس الطائفية الدينية مما لم يبق له شبيه فى العالم المتمدن اليوم .

ان تبديل قانون الانتخاب الذى اصطنع ولفق فى عهد الانتداب امر لا بد منه بل هو نقطة البدء فى السياسة الانقلابية التقدمية التي ينبغى انتهاجها وهو الخطوة الاولى الى تبديل الدستور ـ الذى لا يرى فيه اثرا لروح الامة التي تصب عادة فى دستورها لباب خصائصها ، وتجد فى موارده ، مثلها العليا ومبادئها الخالدة ـ وترسم بعباراته صورة المستقبل الذى تنزع اليه والكيان الذى تريد تحقيقه ، كذلك الى تغيير وجه المجلس النيابي .

وقد تكثر وجهات النظر وتتعارض فى القانون الذى يكفل تمثيل الشعب تمثيلا صالحا ، ولكن اى قانون للانتخابات جديد يستبقى الانتخاب على درجتين هو قانون رجعي يراد به تمثيل الشعب تمثيلا شكليا تحت قناع الانتخاب الحر ، فالكل يعرف " ان انتخاب " الثانويين " يتم عادة بالتراضي او التواطؤ بين رجال الحي على تمثيل بعض عائلاته المتنفذة ، وما يجرى عقب ذلك من ملء صناديق الانتخاب اقل ما يقال فيه انه تزييف مفضوح .

كما ان من الواجب نسف تلك المادة التى تقول بوجود الطائفية وتقسيم تمثيل الشعب على ذلك الاساس . ورب قائل يقول : ليست العبرة فى القانون وسيبقى النتائج هي هي سواء أكان الانتخاب على درجة واحدة ام على درجتين لان تاثير الوجهاء فى المدن والقرى هو تاثير معنوى . وسيبقى مفروضا على الناخبين وهذا صحيح ولكن الى حد :

اولا = ان ثمة نسبة لا باس بها ستتحرر من هذه الوجاهة والعادات فتعطي اصواتها للنائب الذى تريده .

ثانيا = ان الانتخاب على درجة واحدة ان لم يؤت اليوم ثماره فهو يخطط طريق التحرر امام الافراد فى المستقبل .

ثالثا = وهو الاهم ان الانتخاب فى درجتين يمنع الجيل الواعي من ولوج السياسة من ابوابها فيحرم الامة من ذوى الروح الانقلابية فيها ومن العنصر الموجه لسياستها . ولا بد لقانون الانتخاب ايضا لكي يكون صالحا تقدميا من ان تصبح المحافظة اساسا للدائرة الانتخابية فى الوقت الحاضر وان لا يكون الترشيح مقيدا بمكان ولادة الشخص او محل اقامته .

اجل ان العبرة ليست فى القانون بل فى مقدار رسوخه فى النفوس وحرص الناس على التقيد به وتنفيذه والدفاع عنه ، وبالتالي فى مقدار الوعي والنضج السياسيين عند طبقات الشعب ولكننا نجد انفسنا دوما مضطرين الى ذكر هذه الحقيقة وهي ان السماء لا تمطر وعيا ونضجا ، بل ان الوعي والنضج هما نتيجة ممارسة الافراد لحقوقهم السياسية واتاحة الفرصة لهم كيما يمارسوا هذه الحقوق . فاذا جاءت القوانين مطابقة لروح الامة ملائمة لما تنشده من مستقبل زاهر واتاحت لافراد الشعب دونما تمييز او تفضيل ان يمارسوا الحقوق السياسية اللازمة لاى نظام ديموقراطي صحيح عندئذ يتمكن هذا القطر العربي من التخلص بسرعة من مشاكله السياسية المتنوعة التى اخرته عن اللحوق بقافلة المدنية الحديثة واورثته الضعف بدلا من القوة والفوضى بدلا من الاستقرار .

١ – المصـــــادر العـــربيـــة

القـرآن الكـــريم

نجيب الارمنازى ،الشرع الدولى في الاســلام (دمشق ،١٩٣٠)

احمـد امـين ، فـجر الاسلام (القاهرة ،١٩٤٥)

احمـد امـين ، ظـهر الاســلام ج ١٠ (القاهرة ١٩٤٥)

مصطفى امـيـن ، تاريخ التربـية (مصـــر ، ١٩٢٦)

ابو العباس ابن يحي بن جابر البلاذرى ، كتاب فتوح البلدان (ليون ١٨٦٦)

محمد فاضل الجمالي ، اتجاهات التربية والتعليم في انكلترا والمانيا وافرنسا (بغداد ،١٩٣٩)

ساطع الحصرى ،تقارير عن حالة المعارف في سوريا واقتراحات لاصلاحها (دمشق ١٩٤٤)

سعيد حماده ،النظام الاقتصادى في سوريا ولبنان (بيروت ١٩٣)

علي عبد العزيز الحسن ،تاريخ سوريا الاقتصادى (دمشق ١٣٤٢ ه)

حنا خبـاز ، فرنسا وســوريـا (مصـر ١٩٢٨)

جون ديوى ، رسالة في فلسفة التربية الحديثة ،تعريب احسان احمد القوصي (مصر ١٩٢٨)

اسماعيل ذكي ، ضمانات الموظفين (القاهرة ،١٩٣٧)

جرجي زيدان ،تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١٠ (مصـر ١٩٠٨)

جرجي زيدان و تاريخ التمدن الاسلامي (مصـر ١٩١٤)

محمد ابن سعد ،كتاب الطبقات الكبير (ليون ، ١٩١٧)

امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى (مصر ؟)

احسان الشريف ، موجز الحقوق الادارية (دمشق ،١٩٣٩)

علي عبد الرازق ، الاسلام واصول الحكم (مصر ، ١٣٤٣ هـ ٠)

محمد عبده ، الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (مصر ١٣٢٣ هـ ٠)

منير العجلاني : طبقات المجتمع الاسلامي (دمشق ١٩٤٦)

سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية (بيروت ، ١٩٢٩)

عباس العزاوي ، عشائر العراق ، (بغداد ، ١٩٣٥)

حافظ عفيف باشا ، الانجليز في بلادهم (مصر ١٩٣٨)

محمد علي علوبة باشا ، مبادئ في السياسة المصرية (مصر ١٩٤١)

عبد العزيز علوني ، النصارى في العصر العباسي (بيروت الجامعة الاميركية ١٩٤٢)

عزيز بك ، سورية ولبنان في الحرب العالمية الكبرى (؟)

محمد كرد علي ، خطط الشام (دمشق ، ١٩٢٥)

محمد كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية (دمشق ، ١٩٣٩)

فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية (ترجمة ابراهيم حسن ومحمود زكي ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤)

عبد الرحمن الكيالي ، رد الكتلة الوطنية (حلب ١٩٣٣)

عبد الرحمن الكيالي ، المراحل التي لم تنتهي (لم ينشر)

الجهاد السياسي (لم ينشر) لعبد الرحمن الكيالي ايضا .

غوستاف لوبون ، روح التربية تعريب طه حسين (مصر ، دار الهلال ، ؟)

غوستاف لوبون روح السياسة ، تعريب محمد عادل زعيتر (مصر ، ؟)

الماوردي ، الاحكام السلطانية (القاهرة ، ١٣٢٨ هـ .)

آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي ابو ريدة (القاهرة ١٩٤٠)

جمال المحاسب ، روح التربية القومية وفلسفتها ، محاضرة القيت في الجامعة السورية ، (دمشق ١٩٣٨)

عبد الله مخلص ، المسلمون والنصارى (حيفا ، ١٩٢٨)

عبد الله مشنوق ، تاريخ التربية (بيروت ١٩٣٧)

ابن هشام ، السيرة (غوتنجن ـ وستنفلد ، ١٨٦٠)

حسين هيكل ، حياة محمد ، (مصر ١٣٥٤ هـ .)

القاضي ابو يوسف : كتاب الخراج (مصر ١٣٤٦ هـ)

المصادر الاجنبية :

H. Abi Shahla, L'Extinction des Capitulations en Turquie et dans les régions Arabes (Paris 1934)

B. Abou Souan, Le Problème Politique Syrien (Paris 1925.)

M. Ajlani, La Constitution de la Syrie (Paris 1932)

G. Antonius, The Arab Awakening, (Philadelphia, 1939)

A.J. Aberry and Rom Landau, Islam to day (London 1942)

T.W. Arnold, The Preaching of Islam (New York, 1913)

Nejib Azoury, Réveil de la nation Arabe (Paris 1905)

J.A. Babikian, Civilization and Education in Syria & Lebanon Beyrouth 1936)

Robert de Beauplan, Où va la Syrie (Paris, 1929)

C.H. Berker, Christianity and Islam (New York 1909)

Ceder of Lebanon, Syrie Reborn (London , 1919)

B. Chircuh, La Question Kurde, ses origines et ses causes (Le Caire 1930)

Sir Valentine Chirol, The Turkish Empire (New York 1930)

De Goeje, Memoire sur la conquête de la Syrie (Leide Brill 1886 - 1903)

Omar Djabiri, La Syrie sous le régime du Mandat (Toulouse 1934

E.D. Engelhardt, La Turquie et le Tanzimat (Paris , 1882)

V. Franco, Essai sur l'histoire des Israelites de l'Empire Ottomane (Paris, 1897)

Pierre Ghalib, Le Protectorat religieux de la France en Orient (Avignon 1913)

Hashem , La Question Syrienne (Beyrouth, 1927)

Simon Haxey, Tory M.P . (London, 1939)

Philip K. Hitti, History of the Arabs (London, 1940)

William E. Hocking, The Spirit of World Politics (New York 1932

Albert K. Hourani, Syria and Lebanon (Oxford, 1946)

Mohammad Fadhel Jamali, TheYNewIraq, Its Problem of Bedouin Education (New York 1934)

Raymond Janin, Les Eglise Orientales et les rites Orientaux (Paris 1922)

Hans Kohn, Nationalism and Imperialism in the Hither East (New York, 1932)

Hans Kohn, Western Civilization in the Near East(London 1936

Hilmi,Lahham, Le problème Minoritaire en Syrie (Paris 1945)

Henri Lammens, La Syrie (Beyrouth, 1921)

Henri Lammens, L'Ancienne Frontière entre la Syrie et le Hidjaz (Le Caire ?)

Colonel Lamanche, Histoire de la Turquie (Paris 1934)
Gustave Lebon, La Civilization des Arabes (Paris 1884)
Reuben Levy, Sociology of Islam (London 1930-33)
Elizabeth P. Mac Callum, The Nationalist Crusade in Syria New York, 1928)
L. Massignon; Annuaire (Paris ?)
Jean Melia, Chez les Chrétiens d'Orient (Paris, 1929)
L. Meriam, Public Personnel Problems (Washington, 1938)
Gaetano Mosca, The ruling class (tr. by Hannah D. Khan New York , 1939)
F. Mufarrij, Syria and Lebanon under French Mandate, (Beirut A.U.B. 1935)
Victor Muller, En Syrie avec les Bedouins (Paris 1931)
Stephen Panaretoff, Near Eastern Affairs and conditions (New York, 1922)
Edmond Rabbath, Les Etats Unis de Syrie (Alep 1925)
Edmond Rabbath, L'Evolution Politique de la Syrie sous Mandat (Paris 1928)
Elisée Reclus, Nouvelle Geographie Universelle (? 1884)
P. Rondot, La France Méditarranéenne et Africaine (Paris, 1939)
Ross, Fry, Sibley, The Near East and American Philantropy (New York 1929)
V. de Saint Péint, La Vérité sur la Syrie (Paris, 1929)
G. Sanné, La Syrie (Paris, 1920)
Frederick L. Schuman, International Politics, 1st ed.(N.Y.1933
W. A. Shedd, Islam and the Oriental Churches (Philadel. 1904)
Pitrim Sorokin, Social Mobility (New York, 1927)
Nasim Sousa, The Capitulations regime of Turkey(Baltimore 1933)
W. B. Stevenson, The Crusaders int he East (Cambridge, 1907)
William Talcott, Turkey, a World problem (London, 1921)
Arnold J. Toynbee and Kenneth P. Kirkwood, Turkey (New York 1927)
Arnold J. Toynbee Survey of International Affairs V.I(Oxford ")
A.S. Tritton, The Caliphs and their non-Moslem Subjects (London , 1930)
V.V. , Pour mieux connaitre les Armeniens du Liban et de la Syrie (Beyrouth 1929)
Leonard D. White, Introduction to the Study of Public Administration (New York 1926)
L. D. White, Charles H. Bland, Walter R. Sharp, Fritz M. Marx Civil Service abroad (London, 1935)
Le Droit Administrative ; Edited by Librairie de Recueil Sirey, Paris, 1936)
Ency. Britannica 11th ed. (Cambridge, 1911)
" of Islam (Leiden Brill, 1913-36)

المجـــــلات :

مجلة العروة الصادرة في الجامعة الاميركية في بيروت السنة الحادية عشرة العدد الاول اذار سنة ١٩٤٦ .

مجلة سلسلة الابحاث الاجتماعية " " " الحلقة الثانية حزيران ١٩٤٥ ، الحلقة الرابعة في كانون الاول ١٩٤٥

Revue International de Sociologie No 9. Sept-Oct. (Paris1938)

Librairie Générale de droit et de jurisprudence Sociale

L'Ecole et l'Education Nationale, Deuxième semaine Sociale de (Beyrouth 27 Avril - 3 Mai 1941)

Revue de Paris Volume I (Paris, 1925)

Revue de Deux Mônde (Paris 15 Oct. 1921)

المصـــــــادر الكبيه

مجموعة احصاءات عن سوريا ولبنان : (لسنة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣) الصادرة عن المجلس الاعلى للمصالح المشتركة ، (بيروت ١٩٤٥)

الجريدة الرسمية للجمهورية الســـورية

مجموعة القرارات الادارية : لصاحبها محمد توفيق جانا (دمشق ١٩٣٩)

Rapports à la Société des Nations sur la Situation de la Syrie et du Liban.

Les activités de la S.D. N., L'etablissement des Assyriens (Généve, 1925)

Minutes of the Permaneht Mandates Commissions

Statistiques Divers, Publié par le Service Technique du Cadastre et déAmelioration Foncière: Republic Syrienne (Damas, 1945)

Better Govt. Personnel, Report of the Commission of Inquiry on Public Service Personnel (New York, 1935)

Journal Officiel de la S.D.N. (Génève, Dec. 1932)